الشذى الطيب

في ذكر أبي الطيب

بقلم

عبد الجواد سيد ابراهيم

الناشر

شركة نوابغ الفكر

شركة نوابغ الفكر ، القاهرة

البريد الالكترونى :

Nawabgh_elfakr@hotmail.com

هاتف: 25936402

فاكس: 27865553

فهرست الهيئة المصرية العامة

لدار الكتب والوثائق القومية :

ابراهيم ، عبد الجواد سيد

الشذا الطيب فى ذكرى ابى الطيب

تأليف : عبد الجواد

ط-1 القاهرة : شركة نوابغ الفكر 2014

عدد الصفحات :108

1-الشعراء العرب

2-ابو الطيب المتنبى ، احمد بن الحسين بن الحسن الكوفى الكندى ،915-965

ا-العنوان

رقم الايداع :2014/14699

- الترقيم الدولي:978-977-6415-21-8

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

أحمد الله الذى إليه يصعد الكلم الطيب، وأصلى وأسلم على مولانا وسيدنا محمد الذى حبب إليه الشذا الطيب، وعلى جمع رسله، نور الحق وصفوة الخلق، وبعد فهذه عجالة، أوجزت فيها القول، فى ذكرى أبى الطيب، كتتبعًا عيون أخباره، وفنون أشعاره، وتوخيت فيها سهولة التعبير، لتكون قريبة التناول واصطفيت الأبيات التى سقتها للاستشهاد فى كل باب؛ لتعلق بذهن الطلاب؛ وذيلت صفحاتها بشرح ما يستغلق فهمه من المفردات؛ والأبيات توفيرًا للوقت؛ وشفعتها بمصور يبين بيئة المتنبى ورحلاته.

وقد أخلصت العمل لوجه الله فى هذه العجالة؛ راجيًا أن يعم نفعها، فتكون بغية الأديب؛ وغنية اللبيب؛ فإذا شجعنى جمهور المتأدبين بأقباله عليها؛ حمدت الله أن وفقت؛ وأتبعتها بأخرى فى بحث أوسع؛ إذا أتيحت لى الفرصة؛ وكان فى الأجل متسع؛ وإن كان غير ذلك؛ فما أردت إلا النفع والخير ما استطعت؛ وما توفيقى إلا بالله؛ عليه توكلت وإليه أنيب، ،

عبد الجواد سيد إبراهيم

أبو الطيب المتنبى

٣٠٣ - ٣٥٤ هجرية / ٩١٥ - ٩٦٥ ميلادية

تمهيد

أبو الطيب المتنبى، فى الأدب العربى، صرح شامخ البنيان، ودوح مديد الظل، رائع العظمة، على كر العصور، ومر الدهور، اعتورته سهام الحسد والانتقاص فلم تؤثر فى علاه، ولم تنل من عظمته، فهو عظيم فى الرجال، عظيم بين الشعراء، فإذا نحن بحثنا عن آثاره. ودرسنا محاسن أشعاره فإنما ندرس نفسية شاعر اجتماعى، شارك الناس فى آمالهم وآلامهم، وصور علل أخلاقهم، كما وصف علاج أدوائهم كأنما يترجم ما فى الضمائر، ويطلع على ما تكنه السرائر، إذا استطلعنا خبيئة نفسه وليدًا وطفلا، ويافعًا وكهلاً نراها فى كل أطوارها سامية غلابة، طموحة إلى السيادة، تعاف أن يكون الأمراء من أقرانها، وتعد الملوك من نظرائها:

همتى همة الكرام ونفسى نفس حر ترى المذلة كفراً

فهو الشاعر الفذ، والمفرد العلم، رب السيف والقلم، نادرة الدهر، فى صناعة الشعر، تسيطر على الحكمة والشعر، فزاوج بينهما، وتألف نافرهما، فظهر نور الأدب ناصعًا، ونور الحكمة مشرقا، فى أسلوب جديد ونظام فريد كأنه المعنى بقول البحترى:

فى نظام من البلاغة ما شك م امرؤ أنه نظام فريد

وبديع كأنه الزهر الضا م حك فى رونق الربيع الجديد

وصف عصره سياسيا

عاش المتنبى فى العصر الثانى[1] من عصرى الدولة العباسية وهو عصر انقسامها إلى دويلات صغيرة، حين وضع الترك والديلم أيديهم على شئون الدولة، وسيطروا على خلفائها، وانتقص الولاة أطرافها، فاستقل القرامطة بعمان[2] والبحرين وآل بويه بفارس والأهواز، وآل سامان بخراسان، وآل حمدان بحلب والثغور، والأخشيدية بمصر.

تفرق هذا الملك الواسع، بعد أن كانت الرقعة الإسلامية متماسكة الأطراف، يجمع شتاتها حاضرة واحدة، هى بغداد فما أشبههم بملوك الطوائف بالأندلس، الذين نعى عليهم ابن أبى شرف ضخامة الألقاب، وضعف السلطان، فقال:

مما يزهدنى فى أرض أندلس ... أسماء معتمد فيها ومعتضد

ألقاب مملكة فى غير موضعها ... كالهر يحكى انتفاخًا صولة الأسد

زد على ذلك تفرقهم شيعًا فى دينهم، حتى أصبحت بغداد مسرحًا للمنازعات السياسية والدينية، إذ ظهر بها أمر الحنابلة، وقويت شكتهم، وناصبوا أتباع الشافعى العداء، وأغروا بهم العميان والسفهاء، وكانوا يغشون المنازل، فإذا وجدوا نبيذًا أراقوه، أو مغنية آذوها، إلا آل أمرها إلى الدمار، ومما زاد الخطب تفاقما[3]، ظهور[4] أمر القرامطة فى عصر المقتدر فى سواد

---

(١) العصر الثانى من ٣٤٧ - ٦٥٦ أى من عهد المتوكل إلى أن استولى التتار على بغداد.

(٢) بلد باليمن وعمان بالفتح والتشديد بلد بالشام.

(٣) عظما.

(٤) هم قوم ظهر أمرهم فى أيام المعتضد فى سواد الكوفة وبالبحرين والشام وأشعلوا بهذه البلاد نار الفتنة التى آذت المسلمين وسلبتهم أمن الطريق إلى بيت الله الحرام.

الكوفة، فعاثوا فى الأرض فسادًا، وقاموا بغـزوات متتابعة، فملكوا البحرين، وغزوا البصرة وقطعوا طريق الحجـيج أعوامًا، وغزوا الكوفة، وكان المتنبى إذ ذاك فى نحو الثانيـة عشرة من عمره، فاسـتولوا عليها، وأسروا قـائد الخليفة المقتدر، وشـتتوا جيشه، ولم تمض سنتـان على ذلك حتى أغاروا على مكة، ونقلوا منها الحـجر الأسود إلى هجر وألقـوا جثث القتلى فى بئـر زمزم، وما زالت الفوضى تعم؛ حتى ساءت الحال، فى جمـيع نواحى الحياة الاقتصادية، من زراعة؛ وصناعة؛ وتجارة؛ وانغـمس الناس فى حمأة[1] الرذائل؛ لا وازع لهم من دين أو سلطان؛ ولبـثوا على تلك الحـال؛ حتى اسـتولى التـتار على بغداد؛ وأزالوا دولة كانت عظيمة الأثر والسلطان.

أعطيت ملكًا فلم تحسن سياسته كذاك من لا يسوس الملك يخلعه

أثر الحالة السياسية فى شعره

عاش المتنبى منذ غـضاضة أهابه؛ إلى أن خلق[2] برد شبـابه؛ يختلف إلى مدن الشـام وفلسطين؛ من طبرية إلى اللاذقية؛ ومن أنطاكـية إلى حلب؛ وإلى مدن العـراق؛ من بغداد إلى الكوفة؛ وهو فى كل صـقع يرى نار الفتنة مستعرة وعوامل الانقسام قائمة؛ على شفار السيوف؛ وأسنة الرماح؛ فملكت تلك المشاهد عليه حواسه؛ وأخذت بلبه؛ وحركت فى نفسه الميل إلى الخروج على السلطان؛ والاستظهار علـيه بالشجعان، ولم يكن ينقصـه الإقدام؛ وقد كان أكبر مظاهره؛ ولا محبة العظمة؛ وقـد جبل عليها؛ ولذا ظهر فى شعره؛ ما كان يدور بخلده؛ فأجاد فى وصف المعارك وآلات القتال؛ ومدح الشجاعة

---

(١) الطين الأسود المنتن.

(٢) خلق مثلثة العين بلى.

والشجعان؛ ومنى نفسه بحرب شعواء؛ يثير عجاجها؛ ويحمل لواءها؛ ويكون قائد أبطالها؛ فمن وصف المعارك قوله:

وكم رجال بلا أرض لكثرتهم ... تركت جمعهم أرضا بلا رجل

ما زال طرفك[1] يجرى فى دمائهم ... حتى مشى بك مشى الشارب الثمل[2]

وقوله:

والطعن شزر[3] والأرض واجفة[4] ... كأنما فى فؤادها وهل[5]

قد صبغت خدها الدماء كما ... يصبغ خد الخريدة[6] الخجل

وهذا مما استعمل فيه وصف النساء فى صفة الحرب وسيأتى لذلك نظائر.

وقوله فى الشجعان:

شجاع كان الحرب عاشقة له ... إذا زارها فدته بالخيل[7] والرجل

وقوله محدثًا عن نفسه:

لقد تصبرت حتى لات مصطبر ... فالآن أقحم[8] حتى لات مقتحم

لأتركن وجوه الخيل ساهمة[9] ... والحرب أقوم من ساق على قدم

بكل منصلت[10] ما زال منتطرى ... حتى أدلت[11] له من دولة الخدم

---

(١) الكريم من الخيل. (٢) السكران. (٣) الطعن الشزر الذى يقصد به الانتقام.

(٤) مضطربة. (٥) وهل كفرح: ضعف.

(٦) الخفرة الطويلة السكوت الخافضة الصوت المتسترة.

(٧) أى بالفرسان والمشاة. (٨) قحم فى الأمر رمى بنفسه بلا روية. (٩) ضامرة.

(١٠) السيف الصقيل الماضى أو الرجل الماضى فى الحوائج.

(١١) انتصرت يقال أدالنا الله من عدونا أى نصرنا عليه.

وقوله:

سأطلب حقى بالقنا ومشايخ ... كأنهمو من طول ما التثموا[1] مرد[2]

تقال إذا لاقوا خفاف إذا دعوا ... كثير إذا شدوا[3] قليل إذا عدوا

وقوله

وإن عمرت جعلت الحرب والدة ... والسمهرى[4] أخا والمشرقى[5] أبًا

بكل أشعث[6] يلقى الموت مبتسما ... كان له فى موته أربًا

فالموت أعذر لى والصبر أجمل بى ... والبر أسوع والدنيا لمن غلبا

الحياة الأدبية فى عصره

إن انقسام الدولة العباسية فى عصرها الثانى إلى دويلات صغيرة كان من نتائجه تنافس ملوكها فى توطيد ثروتها العامة؛ ونهضتها العلمية! فنمت الحركة الفكرية؛ وسرت فى سبيل الرقى التى رسمها لها خلفاء العصر الأول؛ فجنوا ثمار ما غرسه سلفهم من العلوم الموضوعة والمترجمة؛ وصححوا أغلاطها؛ ورتبوا أبواب مسائلها؛ فكان عصر الثقافة العلمية العامة بفضل تأثير الفلسفة والمنطق فى عقول الباحثين؛ وفى هذا العصر استقصى العلماء مسائل النحو والصرف؛ ودونوا علوم البلاغة؛ وهذبوا مباحثها؛ وظهر النابغون من العلماء والفلاسفة والشعراء؛ أمثال ابن جنى والجرجانى من علماء اللغة

(١) التثم شد اللثام وهو نقاب يوضع على الفم واللفام ما يشد على طرف الأنف.

(٢) جمع أمرد الشاب طر شاربه ولم تنبت لحيته.

(٣) أى حملوا على الأعداء. (٤) الرمح الصلب.

(٥) السيف منسوب إلى مشارف الشام وهى قرى من أرض العرب تدنو من الريف.

(٦) المغبر الرأس المتلبد الشعر.

والأدب؛ والفارابى وابن سينا من الفلاسفة؛ والمتنبى والمعرى والشريف الرضى وغيرهم من الشعراء؛ وكما حفظ لنا التاريخ صورة من هذه النهضة العلمية المباركة: أثبت إلى جانبها صورة نكدة[1]: من صور الجماعات الإسلامية المتنافرة: يبغى بعضهم على بعض. ويكيد قويهم لضعيفهم؛ لا رابطة بين حاكمهم ومحكوميهم؛ حكام مستبدون؛ ورعية يؤمرون؛ فيطيعون رهبة لا رغبة: وخلفاء يولون ويعزلون: دون أن يكون للأمة رأى فى توليتهم أو عزلهم: دماء تهدر من غير جناية: وأموال تستباح فى غير معصية: وأعراض تنتهك فى غير حياء؛ أمة دب فى أخلاقها الفساد ودين فشا فيه الإلحاد وعصر كثير فيه أصحاب الملل والنحل؛ هذه صورة مجملة لأخلاقهم العامة التى كان أثرها بينًا فى شعر الشعراء فى هذا العصر.

فجاهروا بذم ملوكهم، وأهل زمانهم، وحملوا فى قلوبهم الحقد على الناس؛ واستحكمت فى نفوسهم العداوة لهم، وظهر ذلك جليًا فى شعر أبى الطيب المتنبى، وأبى العلاء المعرى، وغيرهما من الشعراء.

أثر الحياة الأدبية فى شعره

علمنا مما سبق أن المتنبى ظهر فى عصر ملئت فيه الدنيا بترجمة علوم اليونان وفلسفتهم وحكمتهم، فكان جديراً به أن يتناول تلك الناحية من التفكير فى شعره، لا سيما وقد سبقه إليها أبو العتاهية، وأبو تمام، غير أنه بذهما وجرى فى ذلك الميدان، لا يشق له غبار، ولا يماريه ممار، إلى أن جاء بعده أبو العلاء ففاقه فى ذلك وإن كان من غرس يديه، وممن عول فى أدبه عليه، فمن أبياته الحكيمة:

---

(١) مشئومة عسرة.

تخالف الناس حتى لا اتفاق لهم إلا على شجب[1] والخلف فى الشجب

فقيل تخلص نفس المرء سالمة وقيل تشرك جسم المرء فى العطب

وقوله:

أبداً تسترد ما تهب الدنـ ـيا فيا ليت جودها كان بخلا

وستمر بك طائفة صالحة من أبياته فى الحكم.

أما سوء الأخلاق، وفساد الزمان فى عصره فقد أثار حقده على الناس، واستصغاره شأنهم، وجعله من المتشائمين الذين يسيئون الظن بكل ما فى الوجود، فأخذ يذم الزمان وأهله، ويحقد على الدنيا وينكر المودة، فمن قوله يذم الزمان:

وما الدهر أن يؤمل عنده حياة وأن يشتاق فيه إلى النسل

وقوله يذم أهل زمانه:

أذم إلى هذا الزمان أهيله فاعلمهم فدم[2] واحزمهم وغد[3]

وقوله ينكر المودة:

ولما صار ود الناس خبا[4] جزيت على ابتسام بابتسام

وصرت أشك فيمن أصطفيه لعلمى إنه بعض الأنام

وقوله فى ذم الدنيا:

لحا[5] الله ذى الدنيا مناخا لراكب فكل بعيد الهم فيها معذب

وسنوفى ذلك حقه عند الكلام على فلسفته.

---

(١) الحزن والهم والشغل. (٢) عيى ثقيل.

(٣) الرجل الدنىء يخدم بطعامه بطنه. (٤) الخداع. (٥) قبح ولعن.

حياته وبيئته وأثرهما فى شعره

اسمه ولقبه: هو أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصمد الجعفى الكندى الكوفى.

مولده: ولد المتنبى فى محلة كندة[1] بالكوفة سنة ٩١٥م، ٣٠٣هـ ويعرف أبوه بعبدان السقاء كان عمله سقاية الماء فى تلك المحلة.

نشأته: لما ترعرع أبو الطيب، ظهر نبيهًا محبًا للعلم أولع من صغره بتعلم اللغة العربية، وكان يكثر الاختلاف إلى مجالس العلماء فى زمانه فى الأدب واللغة، كابن السراج والأخفش، وأبى على الفارسى وكان قوى الحافظة لازم مكاتب الوراقين، وقرأ ما وقع له من كتبهم، وحفظ الكثير من غريب اللغة وحوشيها، وأخبار العرب وأشعار الجاهليين وغيرهم، وقال الشعر على حداثة سنه وبرع فيه.

وهنا نقف هنيهة، نسائل أنفسنا على من تقع تبعة التقصير، فى تدوين أحوال النابغين، ومعيشتهم وأخلاقهم فإنا لا نعرف كيف كانت حياة أبى الطيب الأولى، وممن كان يقتبس أخلاقه، ولا كيف نمت عنده ملكة الشعر، وإذا ساغ لنا أن نستنبط شيئًا من ذلك، فرائدنا فيه الظن الذى لا يغنى من الحق شيئًا، وخلاصة ما وصل إليه البحث والاستقراء، إن أبا الطيب بعد أن شب وترعرع، صحب الأعراب فى بادية الكوفة - ثم عاد إليها بعد سنين بدويًا. قحًا، وكان قد تعلم الكتابة والقراءة، وحفظ الكثير من شعر ابن الرومى، فكان لذلك أثره فى تكوين ملكته الشعرية، ومن شعره الذى قاله فى حداثة سنه قوله:

---

(١) وليس بكندى القبيلة بل هو جعفى نسبة إلى جعفى بطن من سعد العشيرة من القحطانيين.

لا بقومى شرفت بل شرفوا بى وبنفسى فخرت لا بجدودى

وقوله، وقد أحس أن قومًا يبحثون عن نسبه:

أنا ابن من بعضه يفوق أبا البـ ـاحث والنجل بعض من نجله[1]

وإنما يذكر الجدود لهم من نفروه وانفدوا حيله

نسبه: ليس أبو الطيب من بيت مجد ولا أسرة شريفة إذ كان أبوه كما تقدم سقاء، ولكن ذلك لم يثبط من همته، ولم يفل من عزيمته أو يحط من منزلته ب زاد فى علو نفسه حتى سما بها إلى مرتبة الأمراء بل الملوك، وقد مجن به الشعراء، وهجوه من هذه الناحية أى ناحية نسبه، والذى أغراهم بذمه، الوزير المهلبى ببغداد، حين أبى المتنبى مدحه، ترفعًا عن مدح غير الملوك، فوقع فيه حساده من الشعراء، حتى قال فيه أبو الحسين بن لنكك البصرى:

قولا لأهل زمان لا خلاق لهم ضلوا عن الرشد من جهل بهم وعموا

أعطيتم المتنبى فوق منيته فزوجوه برغم أمهاتكم

لكن بغداد جاد الغيث ساكنها نعالهم فى قفا السقاء تزدحم

وقال أحدهم وقد تلطف فى هجائه:

أى فضل لشاعر يطلب الفضـ ـل من الناس بكرة وعشيا

عاش حينا يبيع بالكوفة الما ـاء وحينا يبيع ماء المحيا

---

(١) كأنه يقول لولد سرابيه وبفضلى الذى عرفه الجميع أنم على فضل أبى لأنى بعضه وإنما يفتخر بالجدود من نفره الناس حتى نفدت حيله فى استمالتهم إليه.

ولكن المتنبى لم يأبه لقولهم، ولم يتصد لمعارضتهم، بل ترفع عنهم، وقال لقد فرغت من الرد على الذين هم أرفع منهم طبقة فى الشعراء بقولى:

أرى المتشاعرين غروا بذمى ومن ذا يحمد الداء العضالا[1]

ومن يك ذا فم مر مريض يجد مرا به الماء الزلالا

وقولى:

أفى كل يوم تحت ضبنى[2] شويعر ضعيف يقاوينى قصير يطاول

واتعب من ناداك من لا تجيبه وأغيظ من عاداك من لا تشاكل

وقولى:

وإذا أتتك مذمتى من ناقص فهى الشهادة لى بأنى كامل

ويظهر لى أن المتنبى وقف أمام من هجاه من الشعراء موقف جرير أمام بشار بن برد، حين هجاه بشاره فلم يجبه، لئلا يرفع من شأنه، ويعد من طبقته، قال بشار ولم أهجه - يعنى جريرا - لأغلبه، ولكن ليجيبنى فأكون من طبقته، ولو هجانى لكنت أشعر الناس أو كموقف البحترى أمام ابن الرومى فقد هجاه ابن الرومى فأهدى إليه البحترى ثيابا ودراهم وكتب إليه:

شاعر لا أهابه نبحتنى كلابه

إن من لا أعزه لعزيز جوابه

محنته وسجنه:

طمحت نفس المتنبى إلى السيادة بالفتح، لأنه آنس من نفسه قدرة على

(١) الشديد الذى أعيا الأطباء.

(٢) الضبن: ما بين الكشح والإبط.

تدبير الأمور، لا تقل عن مقدرة من كان يفوز بالسيادة والملك فى ذاك العصر فدعا إلى بيعته شبابا من أترابه، ورواة شعره، فى بادية بنى كلب فأسرعوا لبيعته، وتصدوا لنصرته، ولما شاع أمره، وانتشر خبره، وشى به إلى لؤلؤ أمير حمص، من قبل الأخشيديين، فخرج الأمير لقتاله وتفرق عنه أصحابه، وقبض عليه وأودعه غياهب السجن، مقيداً مدة طويلة، حتى كاد يهلك، فاستعطفه أبو الطيب وهو سجين بقوله:

أما لك رقى ومن شأنه ... هبات اللجين وعتق العبيد

دعوتك لما برانى البلى ... وأوهن رجلى ثقل الحديد

ثم سئل الأمير فى أمره فاستتابه، وأطلق سراحه، بعد أن كان وطن نفسه على الموت، وفى ذلك يقول:

كن أيها السجين كيف شئت فقد ... وطنت للموت نفس معترف

لو كان سكناى فيك منقصة ... لم يكن الدر ساكن الصدف

رقة دينه: نشأ المتنبى فى عصر كثر فيه الزنادقة والملحدون وفشت فيه المازعات الدينية، ووهن أمر الدين، فلم يبل[1] أن يأتى فى شعره بما يخالف أمر الدين، وقد تورط فى ذلك حتى استصغر أمور الأنبياء، نعم إن سوء الاعتقاد الدينى لا ينهض دليلاً على تأخر الشاعر، ولكن للدين حقه من الإجلال، الذى لا يسوغ لمتدين الإخلال به قولا أو فعلا، ومن استهان به فقد باء بغضب من الله، وتعرض لمقته، ومن أبياته الزائغة قوله:

يترشفن من فمى رشفات ... هن فيه أحلى من التوحيد

---

(١) يقال لم أبال ولم أبل أى اكترث انظر القاموس.

وقوله يمدح بدر بن عمار:

لو كان علمك بالإله مقسما ... ى الناس ما بعث الإله رسولا

أو كان لفظك فيهم ما أنزل الـ ... ـتوراة والفرقان والإنجيلا

وقوله فى ابن زريق الطرموسى:

لو كان ذو القرنين أعمل رأيه ... لما أتى الظلمات صرت شموسا

أو كان لج البحر مثل يمينه ... ما انشق حتى جاز فيه وسى

يا من نلوذ من الزمان بظله ... أبدا ونطرد باسمه إبليسا

فما أجرأه قاتله الله على الدين، والاستهانة بمعجزات المرسلين، جزاه الله جزاء وفاقا.

نبوءة المتنبى

أسلفنا الكلام فى عصر الفتن الدينية الذى نشأ فيه المتنبى، إذ ظهر فيه أمر القرامطة، وغزوا الكوفة، والمتنبى إذ ذاك فى الثانية عشرة من عمره، واختلطت دعوتهم بدعوة الإسماعيلية الذين كانوا يدينون بالمانوية، أى الأصلين النور والظلمة، وهى نحلة قديمة، ربما كان لها أتباع من المجوس فى الكوفة لقربها من فارس، وجملة القول أن هذه البيئة كانت مشوبة بالإلحاد فشافيها الضلال، وترادفت فيها الفتن، وسقطت هيبة الدين، ولا شك أن ذلك مما يهون على المتنبى ادعاء النبوة إذا حدثته نفسه بهذا المطمع. فإذا صح أنه جهر بهذه الدعوة وأنه مع هذا كان ينتسب إلى العلويين. فلا غرابة فى ذلك وربما ادعى أنه الإمام الذى ينتظره القرامطة[1] وطائفة من الشيعة الإمامية

(١) حكى المعرى فى رسالة الغفران نقلا عن بعض محدثيه أن للقرامطة بيتا فى الاحساء=

أضف إلى ذلك أن المتنبى لـم يكن يصلى ولا يصـوم. ولا يقرأ القـرءان ولا يؤدى الزكاة بعد أن أثرى رغم أنه كان قليل التوقـير للأنبياء، تخف أسماؤهم على لسانه، حتى كان يقرن نفسه بهم، فمن قوله فى ذلك:

ما مقامى بأرض نخلة[1] إلا كمقام المسيح بين اليهود

وقد برئ من الإسلام، أو بالأحرى برئ منه الإسلام، حين مدح سيف الدلة بقوله:

إن كان مثلك كان أو هو كائن فبرئت حينئذ من الإسلام

هذا إلى ما تقدم مـن مدائحه لبدر بن عمـار، وابن زريق الطرموسى، التى حقر فيها من شأن الأنبياء ومعجزاتهم.

فلو كان يستشعر قلبه للدين رهبـة، ولمقام الأنبياء حرمة، لما جرى على لسانه هذا الغلو الشنيع، الذى لا يسوغه دين ولا عقل. أضف إلى هذا وذاك أنه نظر فى كتب الفلاسـفة، واستعرض بعض آرائهم وشكوكهم. كـما يفهم من كثرة ما اقتبس من معانى أرسطو. ومن تردد عبارات الفـلاسفة وأساليب المناطقة فى شعره، حتى ظهـر الشك والتردد فى بعضه، فلا يسلم من الشك قوله:

فـقـيل تخـلص نفس المرء سـالمة وقيل تشرك جسم المرء فى العطب

ومن تفكر فى الدنيـا ومهـجتـه[2] إقـامـة الفكر بين العـجـز والتـعب

=يزعمون أن إمامهم يخرج منه وعلى باب هذا البيت فرس مسرج ملجم ويقولون للطغام (هذا الفرس لركاب المهدى يركبه متى ظهر).

(١) اسم مواضع بالبادية والعراق واسم واديين بالشام واليمن على ليلة من مكة شرفها الله.

(٢) روحه.

ولا تنس غيظ المتنبى ممن كان يذكر له دعوته النبوة. ورغبته فى دفن الخبر ونسيانه، وهذا كأقوى دليل فى تعزيز الشبهة عليه.

قال أبو الفتح عثمان بن جنى، سمعت أبا الطيب يقول، إنما لقبت بالمتنبى لقولى:

أنا ترب الندا ورب القوافى وسمام[1] العدا وغيظ الحسود

أنا فى أمة تداركها الله غريب كصالح فى ثمود

وسئل أبو العلاء المعرى عن حقيقة ما نسب إلى المتنبى، من ادعاء النبوة فوقف فى رده موقف الشاك المتردد فى قبول ما نسب إليه أو رفضه كما جاء فى رسالة الغفران على علمه بأخبار المتنبى، وإعجابه به، ولم يكن بين قتل أبى الطيب وبين مولد أبى العلاء، غير فترة قصيرة نحو تسع سنين، فهو أحق من يتثبت من صدق الخبر، لو كان إلى التثبت منه سبيل على كل حال لا يكون غريبًا من رجل نشأ هذه النشأة، فى ذلك العصر، على هذا الخلق، واطلع على ما اطلع عليه المتنبى، أن يطمع فى المجد من طريق الدين ولكن هل فعل ذلك وجهر بادعاء النبوة؟ هذا ما لا سبيل إلى البت فيه برأى قاطع:

ومن دعا الناس إلى ذمه ذموه بالحق وبالباطل

رحلاته

تقيم الرجال الأغنياء بأرضهم وترمى النوى بالمقترين المراميا

نشأ المتنبى فى أسرة فقيرة، فما إن بنت عذاره، وطر شاربه، حتى نبابه وطنه، فتجشم أسفارا أبعد من آماله، ومشى فى مناكب[2] الأرض، يطوى

(١) جمع سم مثلثة السين معروف. (٢) جوانب.

المراحل، ويرد المناهل لا زاد معه يحمله، ولا مطية إلا خفه أو نعله. قدحدث بذلك عن نفسه إذ يقول:

ومهمه[1] جبته على قدمى تعجز عنه العرامس[2] الذلل[3]

إذا صديق أنكرت جانبه لم تعينى فى فراقه الحيل

وشتان ما بين حاله هذه وبين الحال التى قال فيها يخاطب سيف الدولة:

تركت السرى خلفى لمن قل ماله وانعلت أفراسى بنعماك عسجدا[4]

وقيدت نفسى فى هواك محبة ومن وجد الإحسان قيدا تقيدا

رحلته الأولى

٣٢٠ - ٣٣٧هـ، ٩٣٢ - ٩٤٨م

كانت غرة رحلاته الميمونة إلى بلاد الشام، حيث انتقل من بدوها إلى حضرها، وقصد طبرية واللاذقية وأنطاكية، فاتصل فى طبرية ببدر بن عمار وفى اللاذقية بالتنوخين، وفى أنطاكية بأبى العشائر الحمدانى قريب سيف الدولة، وكان يمدح من اتصل بهم لا يضن بمدائحه على أحد، فكان كما وصفه صاحب يتيمة الدهر، «يمدح القريب والغريب، ويصطاد ما بين الكركى[5] والعندليب» مدح على بن منصور الحاجب بقصيدته التى منها:

حالا متى علم ابن منصور بها جاء الزمان إلى منها تائبا

فأعطاه عليها دينارا واحدا فسميت الدينارية.

---

(١) مفازة والواو وأورب. (٢) جمع عرمس الناقة الصلبة.

(٣) جمع ذلول سهلة الانقياد. (٤) ذهبا.

(٥) الكركى طائر معروف والعندليب الهزار ويجمع على عنادل.

ومن مدائحه فى بدر بن عمار قوله:

نطقت بسؤددك الحمام تغنيا وبما تجشمها[1] الجياد صهيلا

ما كل من طلب المعالى نافذا فيها ولا كل الرجال فحولا

وأشاد بذكر التنوخين بقصيدته التى رثى بها محمد بن إسحق التنوخى ومنها:

ما كنت أحسب قبل دفنك فى الثرى أن الكواكب فى التراب تمور[2]

ما كنت آمل قبل نعشك أن أرى رضوى على أيدى الرجال يسير

ومن عيون مدائحه فى أبى العشائر قوله:

الناس ما لم يروك أشباه والدهر لفظ وأنت معناه

والجود عين وأنت ناظره والبأس باع[3] وأنت يمناه

رحلته إلى حلب

٣٣٧ - ٣٤٦هـ، ٩٤٨ - ٩٥٧م

كان سيف الدولة أميرا على حلب محبا للأدب عارفًا بجيد الشعر وشاعرا مجيدا فى بعض أوقاته. اجتمع ببابه من شيوخ الشعر ونجوم الدهر عدد كبير قلما يجتمع على باب غيره من أمراء عصره قدم أنطاكية على أبى العشائر الحمدانى وعنده المتنبى يمدحه، فقدم إليه سيف الدولة وعرفه منزلته من الشعر والأدب وأثنى عليه، ولما رحل سيف الدولة عن أنطاكية رافقه

(١) تجشم الأمر تكلفه.

(٢) تختفى من قولهم سهم ما ترای داخل فى الجسم.

(٣) قدر مد اليدين.

المتنبى وأقام عنده منقطعا إليه لا يمدح غيره، فحسن موقعه عنده وهو الذى جذب بضبعه[1]، ورفع من قدره، وخلع عليه وأجازه الجوائز السنية، فكان جملة ما قال أبو الطيب فى مدحه يعادل ثلث شعره وهو أجوده ولا غرابة، فالإحسان يطلق اللسان فهو كما قال فيه أحد الشعراء:

لئن جاد شعر بن الحسن فإنما تجيد العطايا واللهى[2] تفتح اللها[3]

وقد خلد الشعر ذكرهما، وجمع بين اسميهما إلى الأبد، وذاع صيت المتنبى فملأ أذن الدنيا وبصرها، وغلت مراجل الحقد فى قلوب الشعراء بعضاله وحسدا فرموه بكل قبيح وسعوا به لدى أميره، فكان المتنبى يستنجد بأميره فى رد كيدهم لأن اصطفاءه له كان سبب حسدهم، وفى ذلك يقول:

أزل حسد الحساد عنى بكبتهم[4] فأنت الذى صيرتهم لى حسدا

ومن حبه إياه لازمه فى حربه وسلمه، وقدمه إلى الروض ليعلموه الفروسية، وقد شهد معه بعض المواقع الحربية، ومن عيون مدائحه فى سيف الدولة، قوله:

هو البحر غص فيه إذا كان ساكنا على الدر واحذره إذا كان مزبدا

تظل ملوك الأرض خاضعة له تفارقه هلكى وتلقاه سجدا

وتحيى له المال الصوارم والقنا ويقتل ما تحيى التبسم والجدا

---

(١) الضبع العضد كلها أو وسطها.

(٢) اللهى أفضل العطايا.

(٣) اللها. اللحمة المشرفة على الحلق.

(٤) كبت العدو أذله أورده بغيظه.

ومن أبياته التى تدل على اعترافه بما كان يدر عليه من أميره من أنواع الخيرات قوله وقد خرج إلى أقطاع أقطعه إياه سيف الدولة بمعرة النعمان:

أسير إلى أقطاعه فى ثيابه على طرفه[1] من داره بحسامه

لبث المتنبى أثيراً[2] عند سيف الدولة إذ كان غير مدافع فى شاعريته، ولا منازع فى عبقريته، فأغرى ذلك حساده من الأدباء على الوقيعة فيه، والسعاية به لدى أميره، حتى أوغروا عليه صدره وأثاروا حقده، وكان من شدهم له عداوة، وأكثرهم، نكاية، أبو فراس الحمدانى قريب سيف الدولة، فجرحوا كبرياءه ونغصوا عيشه، ولما تنكر له سيف الدولة، أخذ هو يستسمحه ويترضاه، ويعتذر له عن غير ذنب جناه، فقرض قصيدته الميمية التى مطلعها:

واحر قلباه ممن قلبه شبم[3] ومن بجسمى وحالى عنده سقم

ثم أنشده إياها فى مجلس ضم علية الناس، وفيهم خصمه الألد أبو فراس فلما وصل إلى قوله:

يا أعدل الناس إلا فى معاملتى فيك الخصام وأنت الخصم والحكم

ابتدره أبو فراس بقوله، لقد مسخت قول دعبل وادعيته، وهو:

ولست أرجو انتصافا منك ما ذرفت عينى دموعا وأنت الخصم والحكم

فلم يحر المتنبى جوابا، إلى أن وصل إلى قوله:

أعيذها نظرات منك صادقة أن تحسب الشحم فيمن شحمه ورم

ففطن أبو فراس إلى أنه يعنيه بذلك. فقال له ومن أنت يا دعى كندة حتى تقع فى أعراض أهل الأمير فى مجلسه فكظم المتنبى غيظه إلى أن قال:

(١) الكريم من الخيل. (٢) مقدما. (٣) الشبم. البارد.

إن كان سركم ما قال حاسدنا فما الجرح إذا أرضاكم ألم

فقال أبو فراس أخذت هذا من قول بشار:

إذا رضيتم بأن نجفى وسركم قول الوشاة فلا شكوى ولا ضجر

وهكذا أخذ أبو فراس فى معارضته ورده كل معنى إلى قائله وأغفل المتنبى الدفاع عن نفسه مما يدل على كثرة سرقاته فى شعره وعلى منزلة أبى فراس فى الأدب وسرعة بديهته. ورغم هذا فقد أزالت هذه القصيدة موجده سيف الدولة عليه فأظهر له رضاه وأجمل جائزته وأدناه.

ثم اتفق أن اجتمع المتنبى وابن خالويه النحوى فى حضرة سيف الدولة فعرضت مسألة لغوية أثارت بينهما الجدل والمناظرة وأدى الأمر إلى النفور فالمهاترة فوثب ابن خالويه على المتنبى وشجه بمفتاح حديد كان فى يده فلم ير المتنبى من أميره دفاعا عنه ولا انتصارا له فأغضبه ذلك فرحل عنه إلى دمشق وعلق بها مناه وألقى بها عصاه وأقام بها حينا وكان أميرها ابن ملك اليهودى من قبل ملك مصر كافور الأخشيدى فطلب من المتنبى أن يكون من ممدوحيه فثقل ذلك عليه فغضب اليهودى وجعل كافور يكتب إلى ابن ملك فى طلب المتنبى ولحقده عليه كتب إلى كافور أن أبا الطيب قال «لا أقصد العبد وإن دخلت مصر فما قصدى إلا ابن سيده».

وما قضى أحد منها لبانته ولا انتهى أرب إلا إلى أرب

رحلته إلى الرملة فمصر

٣٤٦ - ٣٥٠هـ، ٩٥٧ - ٩٦١م

وإن نبت بك أوطان نشأت بها فارحل فكل بلاد الله أوطان

لما اجتوى أبو الطيب دمشق سار منها إلى الرملة فحمل إليه أميرها الحسن بن طغج هدايا نفيسة واحتفى بمقدمه وحمله على فرس عتيق وقلده سيفا محلى وسار به فى موكب عظيم ولما علم كافور بمجيئه إلى الرملة ازدادت رغبته فى أن يكون من حاشيته كى ينافس به أمراء عصره فكتب فى طلبه إلى أمير الرملة حتى كان يقول لبعض جلسائه «أترونه يبلغ الرملة ولا يأتينا» وبعد الحاف من أمير الرملة على أبى الطيب فى قدومه إلى مصر، سار إليها فرحب به كافور وأخلى له داراً وحمل إليه أموالا كثيرة فمدحه المتنبى بمدائح خلدت ذكره وفاء لحقه، وانتقاما من سيف الدولة لنفسه، إذ كان يعلم عداوة ملكه الجديد لبنى حمدان:

ومن جيد مدائحه فيه قوله:

قواصد كافور توارك غيره ... ومن قصد البحر استقل السواقيا[1]

فجاءت بنا إنسان عين زمانه ... وخلت بياضا خلفها ومآقيا[2]

إذا كسب الناس المعالى بالندا ... فإنك تعطى فى نداك المعاليا

والبيت الثانى أبدع ما يقال فى مدح ملك أسود. وكان المتنبى إنما يمدح كافورا طمعًا فى ولاية يتولاها، أو إمارة يفتخر بها، وقد كان كافور أطمعه بذلك بادئ بدء، فأخذ أبو الطيب يتلطف فى الاقتضاء الذى يلين الصخر، ويستنزل العصم[3]، فمن قوله فى ذلك:

يا ذا الذى يهب الكثير وعنده ... أنى عليه بأخذه أتصدق

---

(١) الساقة النهر الصغير. (٢) جمع مؤق مؤخر العين من جهة الأنف.

(٣) جمع أعصم وهو من الظباء والوعول ما فى ذراعيه أو فى إحداهما بياض وسائره أسود أو أحمر.

وقوله:

أبا المسك هل فى الكاس فضل أناله ... فإنى أغنى منذ حين وتشرب

إذا لم تنط بى ضيعة أو ولاية ... فجودك يكسونى وشغلك يسلب[1]

وقد مدح شاعرنا بمصر أبا القاسم أنوجور سيد كافور، فنال من الإكرام والمال قدرا وافرًا، حتى كان يقف بين يدى كافور وفى رجليه خفان وفى وسطه سيف ومنطقة، ويركب بحاجبين من مماليكه وهما بالسيوف والمناطق.

واستأذن أبو الطيب كافورا فى مدح أبى شجاع فاتك فأذن له، وأبو شجاع هو من أصل رومى أسر صغيرا فأخذه الأخشيد من سيده بالرملة وأعتقه، فنشأ شجاعا كريم النفس بعيد الهمة، فلما مات الإخشيد، وتقرر كافور فى خدمة ابن سيده، أنف فاتك من الإقامة بالقاهرة كى لا يرى كافورا أعلى منه رتبة، وكانت الفيوم أقطاعا له فانتقل إليها، ولما أحوجته الصلة إلى الانتقال إلى القاهرة قابل المتنبى مصادفة فى الصحراء ثم تبادلا الرسائل ومن قوله يمدحه:

لا خيل عندك تهديها ولا مال ... فليسعد النطق إن لم تسعد الحال

وما شكرت لأن المال فرحنى ... سيان عندى إكثار وإقلال

لكن رأيت قبيحا أن يجادلنا ... وإننا بقضاء الحق بخال

ولما مات رثاه بقصيدته العينية المشهورة التى مطلعها:

الحزن يقلق والتجمل يردع ... والدمع بينهما عصى طيع

ومنها:

---

(١) أى شغلك عنى يسلبنى ما منحت.

المجد اخسر والمكارم صفقة من أن يعيش بها الكريم إلا روع[1]

والناس أنزل فى زمانك منزلا من أن تعايشهم وقدرك أرفع

عتب واعتذار

أغفل المتنبى وصف البلاد المصرية، وما فيها من آثار خالدة، ونعمة وافرة، ونيل عذب، وسماء صافية، مع أنه وصف بحيرة طبرية وشعب بوان وبالغ فى وصفهما، ولعل عذره فى ذلك أنه قصد مصر طالب حاجة فامتنعت عليه فخرج منها هاربا؛ ومن ملكها غاضبا على أنه ذكر فى شعره النيل والهرم، فأشار إلى النيل فى قصيدة أرسلها إلى سيف الدولة بعد خروجه من مصر فقال:

من عبيدى إن عشت لى ألف كافور ولى من نداك ريف ونبل

وعرض لذكر الهرمين فى رثاء أبى شجاع إذ يقول:

أين الذى الهرمان من بنيانه ما يومه ما قومه ما المصرع

ورمى أهل مصر بالجهل فى قوله:

وماذا بمصر من المضحكات ولكنه ضحك كالبكا

وقال فى مسلمى مصر:

أمبلغ الدين أن تحفوا شواربكم يا أمة ضحكت من جهلها الأمم

ولعل تبرمه واستخفافه بأهل مص نتيجة حقده على كافور وإخفاقه فى مسعاه:

ومن يك ذا فمر مر مريض يجد مرابه الماء الزلالا

---

(١) من يعجبك بحسنه وجهارة منظره.

رحلته من مصر إلى العراق

٣٥١ - ٣٥٣هـ، ٩١٦ - ٩٦٥م

يئس المتنبى من تحقيق أمله، وخافه كافور لكبريائه وسموه فى شعره، حتى قال لمن عاتبه فى أمره، «يا قوم من ادعى النبوة بعد محمد ﷺ، أما يدعى الملك بعد كافور فحسبكم» فاستأذن كافورا فى الهجرة من مصر فأبى عليه ذلك، تقيه منه، وحذرا من لسانه، غير أنه أعد لهجرته العدة، وانتهز لذلك الفرصة، وخرج من مصر فى ليلة عيد الأضحى على حين غفلة، ونظم فى هجو كافور قصائد ومقطعا كانت عليه أليمة الوقع، شديدة الوطأة، فأرسل كافور بعض رجاله فى طلب المتنبى فلم يدركوه، وسار توا إلى بغداد مقر الخليفة المطيع لله العباسى.

ومن قوله فى هجائه يذكر استبداده بمنعه:

إنى نزلت بكذابين ضيفهم ... عن القرى وعن الترحال محدود

جود الرجال من الأيدى وجودهم ... من اللسان فلا كانوا ولا الجود

ما يقبض الموت نفسا من نفوسهم ... ألا وفى يده من نتنها عود

وقد أفحش فى هجائه وسنذكر طرفا من ذلك فى نماذج شعره ثم تابع سيره إلى الكوفة فمدح بها أبا الفوارس «دلير بن لشكروز» ثم قصد أرجان فمدح بها ابن العميد أبا الفضل محمد بن الحسن وزير ركن الدولة وأقام عنده مدة ثم قصد شيراز فمدح بها عضد الدولة وحظى عنده ولكنه لم تطل مدة إقامته فأراد الرجوع إلى بغداد.

رحلته الأخيرة

خرج أبو الطيب من شيراز قاصدا بغداد، بعد أن أثقله عضد الدولة بالذخائر والنفائس، وكان معه ابنه محسد، وبين يديه غلمانه وخدمه، فلما كان بالقرب من النعمانية فى موضع يقال له الصافية بالجانب الغربى من سواد العراق، خرج عليه جماعة قيل من الخفراء وكانوا قد طلبوا منه خمسين درهما ليسيروا معه فمنعه الشح والكبر فتقدموه وقتلوه، وقيل جماعة من بنى ضبة جهزهم عضد الدولة لقتله، لأنه كان قد دس عليه من سأله كيف هذا العطاء من عطاء سيف الدولة، فقال هذا أجزل إلا أنه متكلف، وسيف الدولة كان يعطى طبعا، وقيل فاتك بن أبى جهل الأسدى وجماعة من أصحابه تآمروا على قتله، لأن المتنبى كان قد هجا ضبة ابن يزيد ابن أخته، وتعرض لأمه، وأفحش فى هجوهما، فغاظ ذلك فاتكاً، وتحين الفرص للفتك به، فلما التقيا تقاتلا قتالا عنيفا، ورأى المتنبى أن الدائرة عليه، فهم بالفرار، فقال له أحد غلمانه، لا يتحدث الناس عنك بالفرار وأنت القائل:

فالخيل والليل والبيداء تعرفنى والسيف والرمح والقرطاس والقلم

فقال له المتنبى قتلتنى قتلك الله، ورجع وقاتل حتى قتل هو وابنه مسد وغلامه مفلح، وكان ذلك فى رمضان سنة ٣٥٤هـ و٩٦٥ ميلادية.

المتنبى نعى نفسه

نعى المتنبى نفسه فى آخر قصيدة له مدح بها عضد الدولة بن بويه، إذ جرى على لسانه فى إضعافها ما يتطير[1] منه، كقوله فيها:

---

(١) يتشاءم.

إذا التـوديع أعـرض قـال قـلبى ... عليك[1] الصمت لا صاحبت فاكا

فلو أنى استطعت خفضت طرفى ... فلم أبصـر به[2] حـتى أراكـا

وأيا شـئت يا طـرقى فـكونـى ... أذاه أو نجـاه أو هـلاكـا

ألم تر إلى قولـه «عليك الصمت» وقوله «لا صـاحبت فـاكا» الذى هو دعاء قلبـه عليه، وقوله خـفضت طرفى فلم أبصر به، وهذا مما يتـشاءم منه. وقيل أن عضد الدولة قال «تطيرت عليه من ذكره النجاة بين الأذاة والهلاك».

رثاؤه

رثى المتنبى كثير من الشعراء المجـيدين، منهم أبو الفتح عثمان بن جنى النحـوى المشهـور، وأبو القاسم مظفـر بن على الطبسى، ومن قـول هذا فى رثائه:

كـان من نفسـه الكبـيرة فى جيـ ... ـش وفـى كـبـرياء ذى سلـطان

مـا رأى النـاس ثانـى المتـنبى ... أى ثـان يرى لـبكر الـزمـان

هو فـى شـعـره نـبى ولـكن ... ظهـرت مـعـجـزاته فى المعـانى

أخلاقه وصفاته

خلق المرء حال من أحوال نفسه، تصدر عنها أفعاله الاختيارية، من غير فكر ولا روية، ويتكون الخلق من البيئة الطبيعـية والاجتماعية، ومن الحوادث التى يصادفها فى إبان حياته، والعـادات التى تعودها منذ نعومة أظفاره، ومن هنا جاء اختلاف الناس فى الصفـات والعادات، فكان منهم الخبيث والطيب، والمسىء والمحـسن، ولما كانت دراسـة الخلق فى شخص تتـوقف على معـرفة

(١) الزم. (٢) يريد سرعة الأوبة.

حياته الأولى بين أسرته وخلطائه، ونحن لم نقف على شيء من تاريخ حياة المتنبى سوى ما تركه لنا من شعره، وكان قوله أصدق كلم وأعدل حكم:

الشعر يحفظ ما أودى الزمان به والشعر أصدق ما ينبى عن الكرم

لولا مقال زهير فى قصائده ما كنت تعرف جوداً كان فى هرم[1]

تلون المتنبى

كان أبو الطيب كثير التلون، ليس فى أمرائه رأى ثابت، ولا عقيدة راسخة، يمدحهم إذا طرب، ويهجوهم إذا غضب، وهو بالغ أقصى الغاية فى ثنائه وهجائه، شأنه مع سيف الدولة الحمدانى، وكافور الأخشيدى، اشترط على أولهما عند اتصاله به أن ينشده مدائحه جالسا وأبى إلا أن ينشد ثانيهما قائما ولما سئل عن ذلك أجاب:

يقل له القيام على الرءوس وبذل الكرمات من النفوس

كان المتنبى يرفع من شأن العرب، ولا يرضى أن يكون ملوكهم من العجم فيقول:

وإنما الناس بالملوك وما تفلح عرب ملوكها عج

ثم يناقض نفسه، فيمدح عضد الدولة بن بويه الأعجمى ويشيد بذكره وآله إذ يقول:

فى وجهه من نور خالقه غرر هى الآيات والسور

فوق السماك[2] وفوق ما طلبوا فإذا أرادوا غاية نزلوا

---

(١) هرم بن سنان المرى ممدوح زهير بن أبى سلمى.

(٢) أحد السماكين الأعزل والرامح وهما نجمان نيران.

مما تقدم نعلم أنه متلون كالحرباء[1] طمعا فى مال ينيله مأربه، أو مركز سام يناسب أدبه.

سرعة غضبه

كان المتنبى سريع الغضب، شديد التأثر، وقد حمله ذلك على مفارقته سيف الدولة بطرا[2] حتى قال فيه هجرا[3]:

إذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه وصدق ما يعتاده من توهم

ولكنه لما هدأت سورة غضبه، أظهر ندمه، واعترف بخطئه، إذ يقول:

وفارقت خير الناس قاصد شرهم وأكرمهم طراً[4] لألأمهم طراً

فعاقبنى المخصى بالغدر جازيا لأن رحيلى كان عن حلب غدراً

غلظة المتنبى وقسوته

كان أبو الطيب عاتيًا جباراً، يمنى نفسه بالانتقام، ويغرى غيره بالقسوة على الناس. مما يدل على هذا الخلق قوله:

ومن عرف الأيام معرفتى بها وبالناس روى رمحه غير راحم

فليس بمرحوم إذا ظفروا به ولا فى الردى[5] الجارى عليهم بآثم

وقد حرض غيره على القسوة بقوله:

---

(١) دويبة تستقبل الشمس برأسها.

(٢) البطر قلة احتمال النعمة.

(٣) الهجر بالضم القبيح من الكلام.

(٤) جميعا.

(٥) الهلاك.

وكن كـــالموت لا يـرثى لبـــاك بكـى منه ويـروى وهو صـــاد[1]

فـإن الجـرح يـنغـر[2] بعـــد حين إذا كـــان البـناء علـى فـــســـاد

وما هجاؤه المقذع إلا كنتيجـة لهذا الخلق فقد غلا فى النيل ممن هجاه. حتى لم يترك لهاج سبـابا، ولم يدع للصلح بابا، ولقد كان وقع هجائه على أعـدائه أشد من وقـع السهـام فى غلس الظلام، ألم تر إلى قـوله فى هجـو كافور:

من كل رخـو وكاء[3] البطن منفـتق لا فى الرجال ولا النسـوان معدود

أمـينا وأخـلافـا وغـدرًا وخـسـة وجبنا أشخصـا لحت لى أم مخازيا

المتنبى يسأل ألحافا

إذا رجعنا النظر إلى ما دونه التاريخ من حـوادث الشعراء مع ممدوحيهم وقبولهم لعطاياهم أو تـرفعهم عن ذلك. عرفنا من تلك الحوادث نفسية كل شاعـر وما اتـصف به من إباء ورفعـة، أو ذلة وضعـة، وإذا علمنا أن قبـول العطاء مذلة، فما بالك بالاستجداء وإراقة ماء المحيا.

يروى لنا التـاريخ تعـفف زهيـر بن أبـى سلمى عن قـبـول العطاء من ممدوحه هرم بن سنان المرى، إذ تتـابعت عليه عطاياه فكان يعطيه كلمـا مدحه أو سأله أو سلم عليه وليدة أو عـبدا أو فرسا، فاستحيـا زهير وكان إذا وجده فى ملأ. قال أنعموا صباحًا غير هرم وخيركم استثنيت، كما يروى لنا التاريخ ما قاله لبيد بن ربيعة العامـرى لابنته حين مدحت الوليد بن عقبة والى الكوفة لأنه أهدى إليه مائة بكرة[4] لينحرها إعانة له على الوفاء بنذره فـقد كان لبيد

(١) عطشان. (٢) نفر الجرح ورم.

(٣) خيط يشد به فم القربة. (٤) الفتية من الإبل.

نذر فى الجاهلية ألا تهب ريح الصبا[1] إلا أطعم، فلما هبت الصبا ولبيد بالكوفة ذو حاجة، حث الوليد أهل الكوفة على إعانته وبدأه بالطاء وكتب إليه أبياتا منها:

أرى الجزار يشحذ شفرتيه ... إذا هبت رياح أبى عقيل

أشم[2] الأنف أصيد[3] عامرى ... طويل الباع كالسيف الصقيل

فقال لبيد لابنته أجيبيه فلعمرى لقد عشت برهة وما أعيا بجواب شاعر وإنما لم يجبه هو أنه ما قال شعراً منذ أسلم، ولم يرو له إلا بيت واحد وهو:

الحمد لله الذى لم يأتنى أجلى ... حتى لبست من الإسلام سربالا

فأجابته ابنته بقولها:

إذا هبت رياح أبى عقيل ... دعونا عند هبتها الوليدا

أشم الأنف أروع عبشميا[4] ... أعان على مروءته لبيدا

إلى أن قالت:

فعدان الكريم له معاد ... وعهدى بابن أروى أن يعودا

فقال لبيد: «قد أحسنت لولا أنك استطعمته» فقالت إن الملوك لا يستحى من مسألتهم، فقال لها «وأنت يا بنية فى هذا أشعر».

على أن ذلك الشمم، وهذا الإباء، لم يكن من خصائص شعراء الجاهليين أو المخضرمين فقط، بل كان فى الشعراء الذين يعدون فى طبقة

---

(١) ريح مهبها من مطلع الثريا إلى بنات نعش. (٢) سيد ذو أنفة.

(٣) ملك ورافع رأسه كبرا. (٤) منسوب إلى عبد شمس.

المتنبى ومن معاصريه، أمثال الشريف الرضى الذى رد هدية بعث بها إليه الوزير فخر الملك وزير بهاء الدولة حينما علم بولادة ابن للشريف. فوصله بألف دينار وقال إنها أجرة القابلة فردها الشريف وقال له «أنا أهل بيت لا يطلع على أحوالنا قابلة غريبة، وإنما عجائزنا يتولين هذا الأمر من نسائنا، ولسن ممن يأخذن أجرة، ولا يقبلن صلة، أما شاعرنا فقد خلع فى ذلك العذار، وأراق ماء وجهه فى طلب الدرهم والدينار، وكلما أجزلوا عطاءه، فتحوا لهاته وأطلقوا لسانه فمن قوله يستندى كافورا ويطلب تكرار صلته:

ومكرمات مشت على قدم السيـ ـر إلى منزلى ترددها
فعد بها لا عدمتها أبدا فخير صلات الكريم أعودها

وقوله:

يا ذا الذى يهب الكثير وعنده أنى عليه بأخذه أتصدق
أمطر على سحاب جودك ثرة[1] وانظر إلى برحمة لا أغرق

وقوله يخدعه بمدائحه حتى يهبه ولاية أو إمارة:

قالوا هجرت الغيث قلت لهم إلى غيوث يديه والشآبيب[2]
إلى الذى تهب الدولات راحته ولا يمن على آثار موهوب

ولو أن شاعرنا وقف مدائحه عند الشكر على العطاء ليكون بمثابة قضاء الدين، لكان موقف كريم، وندر منه أن يقف هذا الموقف فى شكر أبى شجاع فاتك إذ يقول:

---

(١) سحاب ثرة أى كثير المطر.

(٢) جمع شؤبوب الدفعة من المطر.

وما شكرت لأن المال فرحنى سيان عندى إكثار وإقلال

لكن رأيت قبيحا أن يجادلنا وإننا يقضاء الحق بخال

وكان أحيانا يثوب إلى رشده وينحى باللائمة على نفسه، وذلك إذا لم ينل مآربا، أو لم يصب غرضا حيث يقول:

أبعين مفتقر إليك نظرتنى فاهتنى وقذفتنى من حالق[1]

لست الملوك أنا الملوم لأننى أنزلت آمالى بغير الخالق

وما كان أجمل مذهبه لو سلك هذا المسلك ولكنه الطمع يحفز صاحبه إلى الصغار ويسمه الذل والهوان.

كبرياؤه

اشتهر أبو الطيب بالكبرياء تلك الصفة التى تجلت مظاهرها فى حبه السيادة، والترفع عن الدنايا، واحتقار غيره والرغبة فى مساواة الملوك، والأمراء وهى عواطف سامية، ترافق الشاعر فى أطوار حياته، فتظهر فى شعره وفى كل قصيدة نظمها فى مدح أو هجو، أو حكم أو فخر، وإن أنفته أو عزة نفسه، أورثناه صفات حسنة، كالشهامة والصبر والعفة وإطراح الملاذ الخبيثة كشرب الخمر وما يتبعه من المجون والهزل، كما أورثتاه الحقد على الناس؛ والفحش فى القول مما يراه المطلع على كثير من قصائده، وقد زعم كثير من الناس أن كبر أبى الطيب شمم وإباء، أو شجاعة وإقدام، أو ذكاء ونبل، لأهن أسدل عليه بحسن سبكه ستاراً جميلاً فحسبه الناس حسنة من حسناته.

---

(١) جبل مرتفع.

كبر بلاء نسب تيه بلا حسب فخر بلا أدب هذا من العجب

غروره بنفسه: كان من نتائج كبره إعجابه بنفسه، وغروره بإعماله، وفخره بما ينسب إليه، وكأنه كان يراقب حركات الناس ليرى هل يعطونه من الإجلال ما يزعم أنه مفروض عليهم قبله، فإذا بدا له شيء من تقصيرهم، صب عليهم جام غضبه، وأصلاهم نار حقده، لذا كان دائم التذمر من الناس حاقدا عليهم، سيء الظن بنياتهم، وسترى أثر ذلك فى شعره.

وإن أحق الناس باللوم شاعر يلوم على البخل الرجال ويبخل

ومن نوادر بخله ما رواه الخوارزمى، قال حضرت عند المتنبى يوما بحلب، وقد أحضر مالا من صلات سيف الدولة، فصب بين يديه على حصير قد افترشه، ووزن وأعيد فى الكيس، وإذا بقطعه كأصغر ما يكون من ذلك المال، قد تخللت خلل الحصير، فأكب عليها بمجامعه ينقرها ويعالج استنقاذها منه، ويشتغل بذلك عن جلسائه، حتى توصل إلى إظهار بعضها فتمثل ببيت قيس بن الخطيم:

تبدت لنا كالشمس بين غمامة بدا حاجب منها وضنت بحاجب

ثم استخرجها وأمر بإعادتها إلى مكانها من الكيس. فقال بعض جلسائه أما يكفيك ما فى هذه الأكياس حتى أدميت أصبعك لأجل هذه القطعة، فقال أنها تحضر المائدة، وقد ليم شاعرنا على تصرفه المعيب، وحرصه الشائن، وهو المتمدح بالشجاعة وعجيب أن تجتمع الشجاعة التى هى بذل الروح، والبخل وهو الضن بيسير المال، وأعجب من ذا أن يذم البخل ويتصف به، فهو القائل:

ومن ينفق الساعات فى جمع مال مخافة فقر فالذى فعل الفقر

وقد ذكر سبب بخله حادثة أسوقها إليك لا تبريراً له، إذ أنها مما يقع كثيراً، فلا تنهض حجة له، قال وردت فى صباى من الكوفة إلى بغداد، وأخذت خمسة دراهم فى جانب منديلى، وخرجت أمشى فى أسواق بغداد، فمررت برجل يبيع الفاكهة، فرأيت عنده خمسة من البطيخ باكورة فاستحسنتها، ونويت أن أشتريها بالدراهم التى معى، فتقدمت إليه وسومته بثمنها، فقال لى بازدراء «اذهب فليس هذا من أكلك» فتماسكت معه، وقلت أيها الرجل، دع ما يغيظ واقصد الثمن» فقال ثمنها عشرة دراهم، فلشدة ما جبهنى به لم أستطع أن أخاطبه فى المساومة، فوقفت حائراً ودفعت له خمسة دراهم فلم يقبل وإذا بشيخ من التجار قد مر بنا، فوثب إليه صاحب البطيخ ودعا له، وقال يا مولاى ها بطيخ باكورة بأجازتك أحمله إلى منزلك، فقال الشيخ ويحك بكم هذا» فقال «بخمسة دراهم» فقال بل بدرهمين، فباعه الخمسة بدرهمين وحملها إلى داره ودعا له وعاد مسروراً، فقلت يا هذا ما رأيت أعجب من جهلك، استمت على فى هذا البطيخ وفعلت فعلتك التى فعلت وكنت أعطيتك فى ثمنه خمسة دراهم، فبعته بدرهمين محمولا، فقال اسكت هذا يملك مائة ألف دينار فقلت فى نفسى «أن الناس لا يكرمون أحدا إكرامهم من يعتقدون أنه يملك مائة ألف دينار، واعتمدت أن يكون عندى مثلها فأنا أجد فى ذلك على ما تراه حتى يقولوا أن أبا الطيب عنده مائة ألف دينار».

ولعل السبب الحقيقى فى بخله هو ما ذاقه من لوعة الفقر وشظف العيش فى حياته الأولى وما منى به نفسه من الملك الذى كان ينتظر. أن يكون له من ماله دولة، تحقق آماله غير أن بخله رمى به من حالق وكان سبب حتفه فربما تكون منية المتمنى فى أمنيته، وقد يسبق الحين جهد الحريص:

يا قليل الخير موفور الصلف والذى حاز فى التيه السرف

كن بخيلاً وتواضع تحتمل أو سخيا يحتمل منك الصلف

أدب أبى الطيب

ذيوع شعره:

وما الدهر إلا من رواة قصائدى إذا قلت شعرا أصبح الدهر منشدا

فسار به من لا يسير مشمرا وغنى به من لا يغنى مغردا

ولقد صدقت نبوءة المتنبى بشعره، فلم يكن ينظم قصيدة حتى تسير مع الركبان، وتنتقل إلى كل مكان، ويحفظها أهل الوبر والمدر؛ ويستشهد بأبياتها البدو والحضر؛ وينشدها الصبى فى درسه؛ ويشدو بها المغنى فى مجلس أنسه وما أقلام كتاب الرسائل؛ بأجرى بها من ألسن الخطباء فى المحافل؛ وبذا أصبح فريدا فى هذه الشهرة الت يتمتع بها فى حياته، ولم تكن لتنتهى بعد مرور ألف سنة أو يزيد من وفاته.

نادرة: حكى بعض أصحاب ابن العميد، قال «دخلت عليه يوما قبل أن يتصل به المتنبى فوجدته واجما، وكان قد ماتت أخته من قريب، فظننته واجدا لأجلا فقلت لا يحزن الله الوزير فما الخبر، قال إنه ليغيظنى أمر هذا المتنبى واجتهادى فى أن أخمد ذكره، فقد ورد على نيف وستون كتابا فى التعزية ما منها إلا قد صدر بقوله:

طوى[1] الجزيرة حتى جانى خبر فزعت فيه بآمالى إلى الكذب

---

(١) يقول طوى الجزيرة الخبر ورجا أن يكون كذبا ولما كذب الأمل كثر بكاؤه حتى كان الدمع لإحاطته بى كاد يشرق.

حتى إذا لم يدع لى صدقه أملا شرقت بالدمع حتى كاد يشرق بى

فكيف السبيل إلى إخماد ذكره، فقلت له القدر لا يغالب الرجل ذو حظ فى إشاعة الذكر، واشتهار الاسم، فالأولى ألا تشغل فكرك بهذا الأمر، وليلاحظ أن المتنبى قرض القصيدة التى منها هذان البيتان قبل وفاة أخت ابن العميد بسنة أو أقل فكأها طافت الجزيرة فى أقل من سنة.

أما أسباب شهرته فمن أقواها فضل شاعرنا، ومتانة سلوبه، وكثرة أبياته الحكيمة التى انفرد بها، وما يتبع ذلك من منافسة الأمراء بمادحيهم ومدائحهم، فى ذلك العصر عصر الانقسام والتنافس بين الأمراء، ولا تنس فضل حسد الناس له وتحاملهم عليه فى تلك الشهرة ولله در أبى تمام القائل:

وإذا أراد الله نشر فضيلة طويت أتاح لها لسان حسود

لولا اشتغال النار فيما جاورت ما كان يعرف طيب عرف العود

فكل تلك الأسباب أذاعت شعره، وأنالت شاعرنا من المكانة فى أدب العرب ما لم ينله شاعر سواه.

اختلاف الأدباء فى شعره

ليس شىء أدل على عظمة شاعرنا من اختلاف الأدباء والشعراء فى الحكم عليه، من حيث شعره الفنى، إذ لم نر شاعرا عربيا اختلف فيه جمهور المتأدبين كأبى الطيب، فهم فيه فريقان يختصمان، فريق يزرى بالمتنبى ويتتبع سقطاته ويدل على سرقاته، وهم شانئوه وحساده، وفى مقدمة هذا الفريق الصاحب بن عباد، - لأنه كان قد استزار المتنبى فلم يحفل به - وفريق أشاد بذكره مفضلا إياه على شعراء العربية كافة، وكان حامل لواء هذا الحزب أبا

العلاء المعرى فقد جمع الجيد من شعر المتنبى وسماه «معجز أحمد» وشرح ديوانه شرحا وافيا سماه اللامع العزيزى، ولما أتم تصنيفه قال كأنما نظر المتنبى إلى بلحظ الغيب إذ يقول:

أنا الذى نظر الأعمى إلى أدبى وأسمعت كلماته من به صمم

ونشأ من تطاحن الفريقين فريق ثالث، يذكر له حسناته، وينعى عليه سيئاته، فهو ككل شاعر عظيم، كثير الحسنات تفرط منه الهفوات، والكامل من عدت سقطاته، والسعيد من أحصيت هفواته:

هجوت زهيرا ثم إنى مدحته وما زالت الأملاك تهجى وتمدح

فنه:

كان المتنبى شاعرا فنيا عظيما إذ تجلت فى شعره صورة كاملة للطبيعة بجمالها وجلالها كما تجلت فيه فلسفته فى الحياة، ومذهبه فى حقائقها وفروضها، ومثل هذا الشاعر يندر أن يجود الزمان بمثله فى الدهور المتطاولة والأجيال المتباعدة:

هيهات أن يأتى الزمان بمثله إن الزمان بمثله لبخيل

فهو يناجى نفسك من جميع نواحيها، فيطربك متغزلا، ويعجبك واصفًا ويشجوك بل يبكيك راثيًا، فتحلو لك نغمته فى جميع حالاته، وهو شاعر العظمة يلقاك بها أنى واجهته، يمثلها فى الألفاظ إن لم يأنس بها فى المعانى، وإذا اجتمع الأمران كأن يصف حربا مثلا فهناك الإبداع كما قال عنه ابن الأثير، «إذا خاض فى وصف معركة كان لسانه أمضى من نصالا؛ وأشجع من أبطالها، وقامت أقواله للمسامع مقام أفعالها حتى يظن أن

الفريقين قد تقاتلا، والسلاحين قد تواصلا، وعلى الجملة فأنا نرى المتنبى قد ألف نوعًا فريدًا فى الآداب العربية وبنى مجدا رفيعا فى ميدان الشعر العربى درج عليه الشعراء بعده، ولكنهم لم يبلغوا شأوه.

فنون شعره

اعتاد المتقدمون من أهل الأدب أن يقسموا الشعر بحسب الأغراض الباعثة للشاعر على قرضه فيذكروا أنواعه من مديح أو غزل أو هجاء، أو وصف أو فخر أو رثاء، ولما كانت هذه الأنواع لا تثبت على حال، وتزداد آنًا بعد آن، ناسب أن نقسم الشعر حسب رأى المحدثين من الأدباء إلى فنون ثلاثة:

(١) شعره الصميم أو الوجدانى.

(٢) شعره الوصفى.

(٣) شعره الفلسفى أو الحكمى.

(١) شعره الوجدانى

هذا القسم أجدر أن يسمى وحى الخاطر أو الشعر الحساس، وهذا النوع لا يستطيع أحد ممن ضربوا فى هذا الفن بسهم أن ينكره على أبى الطيب، غير أنه ليس غالبًا فى شعره بل أينما وجدته وجدت الصنعة والتفكير العقلى بارزين فيه، فلا تظهر فيه تلك الروعة المؤثرة فى العواطف ويعزى ذلك إلى أنه لم يصادف فى حياته حوادث توقظ فيه هذا الإحساس وتنمى عنده هذا الشعور، وقد اعترف بهذا الجمود على نفسه إذ يقول:

أصخرة أنا مالى لا تحركنى هذى الدمام ولا هذى الأغاريد

وأنى له ذلك وهو لا يتحرك للشراب ولا للغناء، ولا يكاد يعرف الحب ولا يحن إلى وطنه إذا نأى عنه، ولكنك إذا أردت أن تتبين شاعرتيه أثر غضبه ثم انظر إليه كيف يجيد القول، أخر عنه العطاء ثم اصغ لشكواه، عده الولاية ثم تغافل عنه قليلا تره يتلهب غيظا على الزمن، وأظهر أغراض الشعر التى يتمثل فيها الشعر الوجدانى: الغزل والرثاء.

شعره الغزلى

مما يستوقف نظرك إذا قرأت باب الغزل من شعر المتنبى أن ترى مواقفه غالبًا مع نساء بدويات يظعن على العيس[1] يودعهن يوم الفراق، وترى هذه الحالات كلها أو بعضها فى شعره كقوله:

ولم أر كالأحاظ يوم رحيلهم ... بعثن بكل القتل فى كل مشفق

أدرن عيونا حائرات كأنها ... مركبة أحداقها فوق زئبق

عشية يعدونا عن النظر البكا ... وعن لذة التوديع خوف التفرق

وقوله:

حشاشة[2] نفس ودعت يوم ودعوا ... فلم أدر أى الظاعنين أودع

وقوله:

ليالى بعد الظاعنين شكول[3] ... طوال وليل العاشقين طويل

بين لى البدر الذى لا أريده ... ويخفين بدرا ما إليه سبيل

---

(١) الإبل يخالط بياضها صفرة أو هى كرائم الإبل.

(٢) بقية الروح فى المريض.

(٣) جمع شكل وهو أبلغ فى الشكوى من أشكال الذى هو جمع قلة والمعنى أن ليالية متشابهة فى الطول.

وقوله:

ما أوجه الحضر المستحسنات به كأوجه البدويات الرعابيب[1]

حسن الحضارة مجلوب بتطرية وفى الداوة حسن غير مجلوب

والذى يظهر لى من البيتين الأخيرين أن أبا الطيب لم يؤثر فى غريزته البدوية تحضره وارتياده المدن، بل بقى شعره ينم على على فطرته الأولى، وما اكتسبه من البدو فى بدء حياته.

شعره العفيف: لم يعرف أبو الطيب باللهو والفسق، ولا بالمجون والعشق بل كان سىء الظن بالنساء مشغولا عنهن بجهاده فى الحياة لنيل مطامعه التى لا تقف عند حد، مشغولا بحوادث الدهر (على زعمه) التى لم تتركه يلبى نداء الحب إذا يوما دعاه، وقد أبرز هذا المعنى فقال:

لم يترك الدهر من قلبى ولا كبدى شيئًا تتيميه عين ولا جيد

فهو لا يستنيم[2] للذة، ولا يسلمها زمامه، ولا يعطيها من نفسه غير ساعة ثم يمضى فى شأنه ولذا يقول:

وللخود[3] متى ساعة ثم بيننا فلاة إلى غير اللقاء تجاب.

وكان يلوم الشعراء الذين يبدءون قصائدهم بالنسيب على ذلك الحب المتصنع فيقول:

إذا كان مدح فالنسيب المقدم أكل فصيح قال شعراً متيم

---

(١) جمع رعبوبة وهى المرأة الممتلئة البيضاء.

(٢) سكن واطمأن.

(٣) الحسنة الخلق الشابة.

ومن قوله فى غدر النساء:

ومن خبر الغوانى[1] فالغوانى ضـــيـــاء فى بواطنه ظلام

إذا غدرت حسناء وفت بعهدها فمن عهدها ألا يدوم لها عهد

لتلك الأسباب المتقدمة كان أبو الطيب مقلا فى هذا الباب على أن شعره الغزلى ليس ذا تأثير فى إحياء الوجدان، كأشعار من برح بهم لواعج العشق واستولى على قلوبهم الغرام، أمثال امرئ القيس وعمر بن أبى ربيعة وأبى نواس وغيرهم. إذ المعانى الغزلية إذا قصدها فارغ القلب من الحب لا تؤاتيه، ففاقد الشىء لا يعطيه، هذا والمتتبع لشعر أبى الطيب الغزلى يراه دائرًا بين حالات ثلاث، تارة تراه واعظًا للعشاق، واضعًا نفسه موضع الحكيم المرشد لهم، وأخرى تراه يصور أحوالهم، وما يعرض لهم من نحول وسقم، وذبول وسهر، وآونة يصف جمال النساء وما فى جسومهن من نعومة، وفى عيونهن من دعج وفى شعورهن من وفرة، إلى غير ذلك وقد أجاد فى هذا كله وأحسن قمن قوله يعظ العاشقين:

يا عاذل العاشقين دع فئة أضلها الله كيف ترشدها

تذلل لها واخضع على القرب والنوى فما عاشق من لا يذل ويخضع

وقوله: وعذلت أهل العشق حتى ذقته فعجبت كيف يموت من لا يعشق

وعذرتهم وعرفت ذنبى أننى عيرتهم فلقيت منه ما لقوا

وقوله: للهوا آونة تمر كأنها قبل يزودها حبيب راحل

---

(١) المرأة التى غنيت بحسنها عن الزينة.

ومن قوله يصف نحول العاشقين وسقمهم:

حلت دون المزار فـاليـوم لوزر ... ت لحـال النحـول دون العناق

وقوله: ولو قلم ألقـيت فى شق رأسه ... من السقم ما غـيرت من خط كاتب

وقوله: كفى بجسمى نحولا إننى رجل ... لولا مـخـاطبـتـى إياك لم ترنى

وقوله: وخيال جسم لم يخل له الهوى ... لحـمـا فينحـله السقـام ولا دمـا

وقوله فى السهاد:

كـان الجـفـون على مـقـلتـ ... ـى ثيـاب شـقـقن عـلى ثاكل

وقوله: بعـيـدة مـا بـين الجـفـون كـأنما ... عقدتم أعالى كل جفن بحاجب

ومن قوله يصف جمال النساء:

نشرت ثلاث ذوائب من شعرها ... فى ليـلة فـأرت ليـالى أربعـا

واستقـبلت قمر السما بوجـهها ... فـأرتنى القمـرين فى وقت معـا

وقوله: لبـسن الوشى لا مـتـجـمـلات ... ولكن كـى يصن به الجـمـالا

وضـفـرن الغـدائر لا لحـسن ... ولكن خفن فى الشـعر الضلالا

وقوله: من كل أحور[1] فى أنيابه شنب[2] ... خمـر يخامـرها مسك تخـاحره

نعج محاجره[3] دعج[4] نواظره ... حمر غفائره[5] سود غدائره[6]

---

(١) الحور شدة بياض العين فى شدة سوادها.

(٢) صفار الأسنان وعذوبة رضابها وقيل حدتها.

(٣) النعج الاتساع والمحاجر جـمع محجر كمجلس ما دار بالـعين وبدأ من البرقع أى حجاج العين. (٤) الدعج سواد العين مع سعتها.

(٥) جمع غفيرة وهى خرقة تكون تحت الخـمار تحفظه من دهن لرأس وتكون مراء لكثرتها ما يخالطها من الطيب والزعفران. (٦) ضفائر الشعر.

أعارنى سقم[1] عينيه وحملنى من الهوى ثقل ما تحوى مآزره

ويلاحظ أن غزل أبى الطيب تسرى فيه روح الكآبة والحزن ويذكر فيه الفراق والرحيل وشدة السقم والنحول آمال مقطوعة وآلام موصولة فهو مشوب برنة الأسى لا تطير به النفس فرحا كغزل أبى نواس وأضرابه وله بعض العذر فى ذلك إذ هو القائل «وما كنت ممن يدخل العشق قلبه».

شعره الرثائى

اعتاد الشعراء فى مراثيهم التهويل بعظم المصاب وإظهار الفجيعة فيه والحسرة الممزوجة بالتلهف والأسى فيخيل إليك وأنت تقرأ شعرهم أو تصغى إليه أنك تنظر إلى أعينهم تفيض منها العبرات وإلى صدورهم تصعد منها الزفرات فهل يقع نظرك فى مراثى أبى الطيب على شعر من هذا النوع اللهم إلا أبياتا فذة تراها فى غضون مراثيه التى بلغت زهاء أربعمائة بيت رثى بها عشرة أشخاص منهم جدته لأمه التى ماتت شوقا إليه وجل مراثيه فى الوصف والحكم والسر فى ذلك أمران:

(١) أن شاعرنا ليس من طبعه الجزع الذى لا يتناسب مع صلابته ورجولته وجفاء طبعه.

(٢) أن مراثيه لم تكن منبعثة عن حزن فى نفسه أو خطب ألم به بل هو مدفوع إليها بطلب النوال، وحب المال، فهو كالنائحة تتباكى فيبكى غيرها.

إذا اشتهت دموع فى خدود تبين من بكى ممن تباكى

وجملة القول أنك إذا تصفحت شعره فى هذا الباب تقع منه على شعر

---

(١) سقم العين فتورها.

وصفى وآخر فلسفى وترى الأبيات النادرة من الشعر الوجدانى بين بين انظر إلى قصيدته فى رثاء محمد إسحق التنوخى التى منها:

ما كنت أحسب قبل دفنك فى الثرى أن الكواكب فى التراب تمور

تره يمثل جلال المرثى ومكانته فى قومه وهيئة جنازته مما ينشرح له صدرك فتتمنى لو تنال بعض ما ناله كما فعل ذلك عضد الدولة الذى ظفر بالوزير أبى طاهر محمد بن بقية فقتله وصلبه ولما رثاه أبو الحسن محمد بن عمران الأنبارى بقصيدته التى مطلعها:

علو فى الحياة وفى الممات لحق تلك إحدى المعجزات

قال وددت لو أنى المصلوب وتكون هذه القصيدة فى. تعال معى ننظر إلى مرثية بماك عبد سيف الدولة التى منها:

وقد فارق الناس الأحبة قبلنا واعيا دواء الموت كل طبيب

سبقنا إلى الدنيا فلو عاش أهلها منعنا بها من جيئة وذهوب

تملكها الآتى تملك سالب وفاقرها الماضى فراق سليب

ألا ترانا ننسى الميت حينما تستهوى أفئدتنا تلك الدرر التى نظمها فى فلسفة الموت وتصوير الحياة فهل نقيس العظام النخرة بتلك الدرر التى بقيت على وجه الدهر سائرة (أيقاس ما يفنى بما لا ينفد) ثم انتقل إلى مرثيته فى أخت سيف الدولة تره وقد بث شكوى الشيخوخة والضعف إذ يقول:

وإذا الشيخ قال أف فما ملـ ـل حياة ولكن الضعف ملا

آلة العيش صحة وشباب فإذا هما وليا عن المرء ولى

ثم أقرأ قصيدته التى عزى بها عضد الدولة بعمته تقف منها على فلسفته فى الموت وإن كل امرئ لابد وارد حياضه وكيف نبخل بأرواحنا على زمان هن من كسبه إلى غير ذلك؛ مما سيجىء عند الكلام على شعره الفلسفى إذ يقول:

لابد للإنسان من ضجعة ... لا تقلب المضجع عن جنبه

ينسى بها ما كان من عجبه ... وما آذاق الموت من كربه

نحن بنو الموتى فما بالنا ... نعاف ما لابد من شربه

فهذه الأرواح من جوه ... وهذه الأجسام من تربة

يموت راعى الضأن فى جهله ... موته جالنيوس فى طبه

أما مراثيه التى صدرت عن حزن فى النفس، ورقة فى الحس، فهى مرثيته فى أخت سيف الدولة الكبرى التى يقول فيها:

غدرت يا موت كم أفنيت من عدد ... بمن أصبت وكم أسكت من لجب

قد كان كل حجاب دون رؤيتها ... فما قنعت لها يا أرض بالحجب

ولا رأيت عيون الأنس تدركها ... فهل حسدت عليها أعين الشهب

ومن قوله فى رثاء أبى شجاع فاتك:

يا من يبدل كل يوم حلة ... أنى رضيت بحلة لا تنزع

ما زلت تخلعها على من شاءها ... حتى لبست اليوم مالا تخلع

(٢) شعره الوصفى

مما لا مراء فيه أن باب الوصف من أكبر فنون الشعر وأوسع مناحيه، فهو ينتظم وصف مناظر الطبيعة من الحدائق الناضرة، والمياه المتدفقة، والجبال الشامخة، والسماء وكواكبها وبروقها وسحائبها، وطلها ووبلها كما يحتوى وصف أنواع الحيوان كالإبل وسيرها، والخيل وشياتها، وأوابد الوحش، وجوارح الطير، إلى غير ذلك. وقد امتاز كل شاعر بنوع خاص من الوصف. واحد أو أكثر تبعا لبيئته وميول نفسه، والحوادث التى أثرت فى شعوره وحسه، أما شاعرنا فقد امتاز بغزارة مادته فى وصف كثير من مشاهداته، فوصف المعارك وآلات القتال كما وصف الخيل والجمال والأسد والغزال، وأبدع فى وصف بحيرة طبرية وشعب بوان، وإذ كان المتنبى لبث طيلة عمره نضو أسفار يجوب الفيافى والقفار، فلا غرو أن يألف الفضاء الذى هو أوسع من مسارح الظنون ويصف الفلاة ويستروح بهجيرها. فيقول:

ذرانى والفلاة بلا دليل ... ووجهى والهجير بلا لثام

فإنى أستريح بذى وهذا ... وأتعب بالإناخة والمقام

ومن قوله يمدح عضد الدولة ويصف شعب بوان فى طريقه إلى شيراز وهو موضع كثير الشجر والمياه يعد من أعظم جنات الدنيا:

مغانى[1] الشعب طيبا فى المغانى ... بمنزلة الربيع[2] من الزمان

ومنها: لها ثمر تشير إليك منها ... بأشربة وقفن بلا أوان[3]

---

(١) جمع مغنى وهو المنزل الأهل.

(٢) الربيع الزمان الطيب.

(٣) جمع آنية وهى الأوعية.

وأمـواه يصل[1] بهـا حصـاها صليل الحلى فى أيدى الغـوانى

وستمر بك هذه القصيدة فى نماذج الشعر.

وقال يصف بحيرة طبرية بالشام من قصيدة يمدح بها على بن إبراهيم التنوخى:

لولاك لم أترك البحيرة والغو ر دفء ومـاؤها شـبم

والطير فوق الحباب[2] تحسبها فرسان بلق[3] تخونها اللجم

تغنت الطير فى جوانبها وجادت الأرض حولها الديم[4]

وسنقف بك على دراسة تحليلية لهذه الميمية.

وقوله يصف السيوف: لهن وهامات[5] الرجال مغارب

خلقن شموسا والغمود مشارق

ومن قوله يصف الرماح: إذا وقعت فيه كنسج الخدرنق[6].

قواض مواض نسج داود عندها وتفرى إليهم كل سور وخندق

تقد عليهم كل درع وجوشن

وقوله يصف حركات الجيش مادحا سيف الدولة فى قتال الروم:

---

(١) يصوت.

(٢) حباب الماء معظمه وقيل نفاخاته التى تعلوه.

(٣) فرس أبلق فى لونه سواد وبياض.

(٤) جمع ديمة وهى المطر ليس فيه برق ولا رعد.

(٥) جمع هامة وهى الرأس.

(٦) العنكبوت.

ضممت جناحيهم إلى القلب ضمة تموت الخوافى[1] دونها والقوادم[2]

وقوله يمدح أيضًا بطلبه بنى كلاب وانتصاره عليهم:

يهز الجيش حولك جانبيه كما نفضت جناحيها العقاب[3]

وقوله يصف مهره وقد نسب إليه الحذق والتمييز. مما لم يتوافر فى كثير من بنى الإنسان:

يميز الهزل من الحقائق وينذر الركب بكل سارق

وقال يصف فرسه بالنشاط والمرح:

شقت به الظلماء أدنى عنانه فيطغى وأرخيه مرارا فيلعب

ووقع بصره على غزال يرعى فوصفه بما تغبطه عليه الغانيات فقال:

أغناه حسن الجيد عن لبس الحلى وعادة العرى عن التفضل[4]

كأنه مضمخ[5] إلى يافوخه معترضا بمثل قرن الأيل[6]

وقد وصف السد وصفا إذا قرأته خيل إليك أن الأسد أمام ناظريك، فقال:

فى وحدة الرهبان إلا أنه لا يعرف التحريم والتحليلا

يطأ الثرى مترفقا من يتهه فكأنه آس[7] يجس عليلا

---

(١) الخوافى أربع ريشات من جناح الطائر تختفى إذا ضم الطائر جناحيه.

(٢) أربع أخرى فى أول جناح الطائر. (٣) طائر معروفة.

(٤) التفضل أن تلبس المرأة ثوبًا واحدًا تنام فيه. (٥) ملطخ بالطيب.

(٦) الأيل بضم الهمزة وكسرها وتشديد الياء مفتوحة الجدى الجبلى والجمع أياييل.

(٧) طبيب.

ويرد غـفـرته[1] إلى يافـوخـه حـتى تصـيـر لـرأسـه إكليـلا

وقد وصف كلب صيـد وصفا طقيقا يدل على بعـد غوره وصدق نظره في الوصف فقال:

يعـدو إذا أحـزن[2] عـدو المسـهل إذا تلا جـاء المدى[3] وقـد تلى

يكاد فـى الوثب من التـفـتـل[4] يجـمع بين مـتنه والكـلكل[5]

كـأنه من علمـه بالمقـتـل علم[6] بقـراط فصـاد الأكـحل[7]

وإنا إذا استقـصينا شعره الوصفى واستعرضنا معـانيه فى كل ضروبه. حكمنا عـدلا بأنه أعظم الشعـراء الوصافين الممـتازين. وبخاصـة فى وصف المعارك وآلات القتال على أنه لم يقصـر فى وصف الناس وأخلاقهم وعاداتهم وما يجـول فى خواطرهم، كأنه يقـرأ ما فى سرائـرهم، ألم تر كيف وصف سـيف الدولة فأبرزه فـى صورة قـائد مظفـر، وملك جبـار الناس عـبيـده، والأموال غنائمه، والدهر دونه، فيقول فيه:

على عـاتق المـلك الأغـر نجـاده[8] وفى كف جبار السموات قائمه[9]

تحـاربه الأعـداء وهى عـبيـده وتدخـر الأمـوال وهى غـنائمـه

ويسـتكبـرون الدهـر والدهر دونه ويستعظمـون الموت والموت خادمه

---

(١) شعره المجتمع على قفاه. (٢) الحزن ضد السهل.

(٣) الغاية. (٤) الانفتال والهرب.

(٥) الصدر. (٦) طبيب قديم يضرب به المثل.

(٧) عرق فى الذراع يفصد. (٨) حمائل سيفه.

(٩) قائم السيف قبضته التى تكون فى يد الضارب.

دراسة تحليلية

لوصفى المتنبى والبحترى بحيرتى طبرية والمتوكلية

وصف المتنبى بحيرة طبرية بالشام فبدأ الوصف بقوله أنه لولا ممدوحه لما ترك البحيرة مع برودة مائها وقصد الغور على شدة حره ودفء مائه وكأنه لم يرقه من البحيرة إلا ذاك.

لولاك لم أترك البحيرة والغو ر دفء وماؤها شبم

ثم شبه تلاطم أمواجها بالفحول المزبدة وإسفاف الطير فوق مياهها بالفرسان المتلاحقة، كما شبه اصطفاق[1] أمواجها الثائرة بجيشين حمى وطيس الحرب بينهما، أحدهما هازم والآخر منهزم:

والموج مثل الفحول مزبدة تهدر[2] فيها وما بها قطم[3]

والطير فوق الحباب تحسبها فرسان بلق تخونها اللجم

كأنها والرياح تضربها جيشا وغى هازم ومنهزم

ثم شبهها أيضًا فى ضحوة النهار بقمر حوله ظلمة المروج والأشجار:

كأنها فى نهارها قمر حف به من جنانها ظلم

وعد من محاسنها تغريد الأطيار فى رياضها، وهطل الأمطار على ما حولها من مروج وأشجار وكزنه اعتراف منه بقلة مائها، وعدم كفايته لسقى ما حولها من جنات وأعناب.

---

(١) اصطفقت الأمواج اهتزت بالريح.

(٢) هدر البعير هاج وأخرج الزبد من فيه.

(٣) بفتح القاف والطاء شهوة الضراب.

تغنت الطير فى جوانبها وجادت الأرض حلها الديم

ثم عاد فشبه صفاء مائها، وعذب نميرها، بمرآة مجلوة كشف عنها غطاؤها:

فهى كماوية مطوقة جرد عنها غشاؤها الأدم

وختم وصفها بأن عاب جريانها فى بلد يقطنه قوم لئام أدعياء فقال:

يشينها جريها على بلد يشينه الأدعياء والقزم

البحترى والمتوكلية

أما البحترى فقد راقه من المتوكلية حسن مرآها وحولها الآنسات يشرفن عليها من قصورهن فقال:

يا من رأى البركة الحسناء رؤيتها والآنسات إذا لاحت مغانيها

ونظر إلى ما فيها من إبداع فى التصوير، إتقان فى الصنعة، فنسبها إلى جن سليمان الذين كانوا يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان، مما تعجز عنه يد الإنسان.

كأنه جن سليمان الذين ولوا إبداعها فأدقوا فى معانيها

كما شبه مجارى المياه التى تنصب فيها بالوفود المتلاحقة والخيل المتسابقة وذلك يدل على غزارة مائها، وكثرة فيضانها.

تنصب فيها وفود الماء معجلة كالخيل خارجة من حبل مجريها

وما أبدع تمثيله نسج الرياح على صفحة مائها بالدروع المقدرة السرد، المصقولة الحواشى.

إذا علتها الصبا أبدت لها حبكا مثل الجواشن مصقولا حواشيها

كما أبدع فى تشبيه صفاء مياهها الجارية فى القنوات التى تنصرف منها إلى ما يحيط بها من البساتين الفيحاء؛ والحدائق الغناء، بالفضة السائلة تجرى فى سبائكها:

كأنما الفضة البيضاء سائلة من السبائك تجرى فى مجاريها

ومثلها حين تتراءى النجوم ليلا فى جوانبها بالسماء التى سطعت كواكبها ولمعت ثواقبها.

إذا النجوم تراءت فى جوانبها ليلا حسبت سماء ركبت فيها

ثم مدحها بسعتها وثرائها بالسمك الشهى واللحم الطرى.

لا يبلغ السمك المحصور غايتها لبعد ما بين قاصيها ودانيها

وزادها رفعة، ورفعها منزلة، حين شبهها وهى متدفقة الماء، بيد الخليفة المتوكل عند العطاء، وهذا من نوع التشبيه المقلوب.

كأنها حين لجت فى تدفقها يد الخليفة لما سال واديها

فشتان ما بين الشعرين، فكلاهما استمد أخيلته وتصوراته، مما رآه وأحاط به من المشاهدات والمعقولات فكان ذلك أثرًا من آثار البيئة التى عاش فيها، فكلا الشاعرين أعمل فكره وجاد بما عنده:

ومكلف الأيام ضد طباعها متطلب فى الماء جذوة[1] نار

---

(١) جمرة.

(٣) شعره الفلسفى

ربما يستوقف نظر القارئ هذا العنوان بادئ ذى بدئ، إذ أن الفلسفة تصدر عن التعقل والفكر والشعر يصدر عن الخيال والعاطفة، فهما كالنقيضين وفى الحق أن الفكر والخيال والعاطفة كلها ضرورية للفلسفة والشعر، غير أن نصيب الفيلسوف من الخيال قليل. كنصيب الشاعر من الفكر، ويبعد أن تعطل وظيفة الفكر فى نفس شاعر عظيم كأبى الطيب، بل المعهود أن شعراء الأمم الفحول كانوا طلائع النهضة الفكرية فى كل عصر نبغوا فيه، على أنك إذا أمعنت النظر فى سبب الشهرة التى حازها الشعراء فى هذه الطبقة، كبشار وأبى نواس وابن الرومى، وأبى تمام والمتنبى والمعرى، علمت أنهم بذوا غيرهم من الشعراء، بتوفرهم على فنون القول المتشعبة، وطرقهم أبوبا المعانى المتنوعة، فكانوا أجمع من غيرهم لملكات الشعر والفلسفة، وأقدر على النظر فيما حولهم ممن نظروا فى ناحية واحدة، فحسرت[1] أبصارهم عن غيرها فداروا فيها طول عمرهم، وأبو الطيب على وجه خاص أولى من عامة شعرائنا (ما عدا المعرى) بالنصيب الأوفر فى عالم المذاهب والآراء، لأن الحقائق لا تكاد تستقر فى نفسه، حتى يكسوها ثيابا من نسجه ويغلب أن يوردها بعد ذلك مقرونة بأسبابها، لا فرق بينها وبين أسلوب الفلاسفة فى التدليل والبرهان، وإذا ساغ لنا أن نسمى أبا الطيب فيلسوفا فإن فلسفته عملية إذ أنه زوى[2] وجهه عن مباحث ما وراء الطبيعة ونأى عن الخوض فى هذه المتاهات التى ليس وراء البحث فيها طائل. وأكب على درس الحياة فأبدى مذاهبه وآراءه فيها صريحة قريبة المنال، لا غموض فيها وا إبهام، ويمكننا تلخيصها فى كلمات وجيزة. وهى:

---

(١) كلت. (٢) نحاه وصرفه.

«إن الحياة حرب ضروس[1]، علاقة الإنسان فيها بالإنسان، علاقة المقاتل بالمقاتل[2]، فهو يركب سنانا من صنعه فى كل قناة ينبتها الزمان[3]، وما المودة فيها إلا حيلة من حيل الحرب، أو هدنة فى حومة القتال، فاحذر الناس واستر الحذر منهم[4]، وإياك أن تشكو إلى أحد، أو تغرك دمعة باك أو بشاشة مبتسم، إنك إن تشك إليهم بلواك تكن كالجريح الذى يشكو ألمه إلى الرخم والعقبان[5]، وإن الذى يبكى بين يديك حين تظفر به، لن يرحمك غدا حين يظفر بك[6]، والذى يبتسم لك ويبدى لك المودة إنما يدارى الضعف والكيد ثم هو إذ تمكن من مقاتلك لن يرثى لضعفك، ولن يقيل عثرتك[7]، واعلم أنك تنال بالخوف فى الدنيا ما لا تنال بالود، وإن من أطاق التماس شىء من أشيائا غلابا واغتصابا لم يلتمسه سؤالا[8]».

مستنبط من هذه الدرر المنثورة، التى عقدها المتنبى فى شعره، إنه كان كئيب المزاج، ومرجع هذا طبعه، وأنه كان من المتشائمين الذين يسيئون الظن بكل أحد، ومصدر هذا رأيه، وتجاربه، وبما ركب فى طبعه من الكآبة والتطير، حكم على الناس والأيام، ورسم لنفسه خطة يسير عليها فى الحياة

---

(١) الضروس أصله الناقة السيئة الخلق التى تعض حالبها وتوصف بها الحرب مجازًا.

(٢) إنما أنفس الأنيس سباع يتفارسن جهرة واغتيالا.

(٣) كلما أنبت الزمان قناة ركب المرء فى القناة سنانا.

(٤) وكن على حذر للناس تستره ولا يغرنك منهم ثغر مبتسم.

(٥) لا تشكون إلى خلق فشمته شكوى الجريح إلى العقبان والرخم.

(٦) فليس بمرحوم إذا ظفروا به ولا فى الردى الجارى عليهم بآثم.

(٧) لا يخدعنك من عدوك دمعة وارحم شبابك من عدو ترحم.

(٨) من أطلق التماس شىء غلابا واغتصابا لم يلتمسه سؤالا.

وقد أبان محجته وأوضح نهجه فى شعره الذى يشكو فيه الزمان وأهله، ويذم الدنيا فمن قوله فيها:

ماذا لقيت من الدنيا وأعجبها　　أنى بما أنا باك منه محسود

وقوله فى تحمل مصائب الدهر:

وأنا لنلقى الحادثات بأنفس　　كثير الرزايا عندهن قليل

تهون علينا أن تصاب جسومنا　　وتسلم أعراض لنا وعقول

وقوله فى الحض على عزة النفس:

عش عزيزا أو مت وأنت كريم　　بين طعن القنا وخفق[1] البنود[2]

فاطلب العز فى لظى ودع الذ　　ل ولو كان فى جنان الخلود

فلسفته الخلقية

أبان شاعرنا أنه لا يكره اللذة والسرور، فهو يشهيهما، ويحض عليهما فيقول:

أنعم ولذ فللأمور أواخر　　أبداً إذا كانت لهن أوائل

غير أنه يطلبهما بشرط ألا يعرضاه للذل، ولا يصماه بالدنس، وقد أملاه علينا بقوله:

ولا أقيم على مال ألذ به　　ولا ألذ ما عرضى به درن[3]

بل هو لا يستطيب اللذة التى لا تصحبها الكرامة ولا يجد معها التبجيل فيقول:

---

(١) اضطراب.　　(٢) جمع بند وهو العلم.　　(٣) أى وسخ قذر.

وما منزل اللذات عندى منزل إذا لم أبجل عنده وأكرم

رأيه فى المال: يرى المتنبى أن طلب المال واجب كتدبيره، بيد أنه إنما يطلبه لأنه وسيلة المجد وسبيل إليه، فيقول:

فلا مجد فى الدنيا لمن قال ماله ولا مال فى الدنيا لمن قل مجده

رأيه فى العلم: إن شاعرنا ليطرى المعرفة ويرفع الحكمة فيقول فى بيت واحد:

أعز مكان فى الدنى[1] سرج[2] سابح وخير جليس فى الزمان كتاب

غير أنه لا يجعل العلم والحكمة غاية منشودة، بل يجعلهما ذريعة إلى غايته من العز والسيادة، فإذا قرأت قوله:

«الرأى قبل شجاعة الشجعان هو أول ولها المحل الثانى»

حسبته يقدم الرأى على الشجاعة عرفانا بقيمة الرأى، فإذا وقفت على البيت الثانى:

فإذا هما اجتمعا لنفس مرة[3] بلغت من العلياء كل مكان

علمت أنه يرغب فى اجتماعهما ليبلغ بهما العلياء التى هى الغاية القصوى، وخلاصة رأيه فى المفاضلة بين السيف والقلم بينها فى بيتيه الآتيين:

حتى رجعت وأقلامى قوائل لى المجد للسيف ليس المجد للقلم

أكتب بنا أبداً بعد الكتاب به فنحن فى دولة الأسياف كالخدم

---

(١) جمع دنيا.

(٢) فرس وسميت بذلك لسبحها بيديها فى سيرها.

(٣) شديدة.

وجمـاع الرأى فى فلسفـة أبى الطيب أنه لم يكن فـيلسوفا نظـريًا كابن سيناء، ولا خلقيا كابن حزم، ولا مؤدبا صـوفيا كالغزالى، فمن خطل الرأى أن نقيسه بهم، فإن فلسفتهم تسـمو على متناول الشعراء، «وما ينبغى لهم وما يستطيعـون» بل غاية ما يقال عنه، أنه مفكـر له آراء فى الحياة ومظاهرها، لا نجزم بأنها له أو أخذها عن غـيره، وهى حافلة مستفيضة. تنـاول فيها أبحاثه خلقية واجتماعية وأجاد تصويرها وتقريبها للأذهان، على كل حال إذا أغضبنا الطرف عن بعض آرائه التى غـلا فى الحكم فـيهـا على الدهر، وأظهر عـدم رضائه بالقدر وقفنا بعد ذلك منه على آراء وفق ما يراه جمهور الناس فى كافة الأمم فى جميع العصور ألم يقل العباس بن الأحنف:

أسأت إذ أحسنت ظنى بكم والحزم سوء الظن بالناس

ولكن آراءه لا تروق لبعض الخياليين الذى يعيشون فى واد من الأوهام، ويسرهم القول بأن الحياة عدل ونعيم، والإنسان فيها ملاك كريم.

ألفاظه وأساليبه ومميزاته

لقد سما أبو الطيب إلى درجة ممتازة فى رصانة القول وتنوع ساليبه ودقة معانيه، ورائع تصوراته، وبديع أخيلتـه، و كان دون غيره فى صقل العبارات، وتوشـية الكلمـات، ومراعـاة المحسـنات، إذ ليس ذلك من فنه، ولا هو من المبرزين فيه رغم شيوعه فى عصره، على أن شعره على وجه عام لا يخلو من مميزات عصره من حسن الذوق، وعذوبة اللفظ، ودقة المعنى، إذ الشاعر مهما قويت عنده ملكة الاستقلال وبرزت شخصيته. لا يتسطيع الخروج عن مألوف أهل الأدب فى زمـانه، ولكنه اسـتطاع أن يخـرج عليـهم فى إبرازه مـعانيـه الشريفة، وأفكـاره الدقيقة، فى أى لفظ كان، وعلى أى أسلـوب تهيأ له ولو

لم يجر على مشهور القياس أو ينطبق على وجوه البلاغة فعل ذلك وثوقا بنفسه لاطلاعه على أسرار اللغة وحفظه الكثير من غريبها كقوله:

وفاؤكما كالربع أشجاه طاسمة بأن تسعدا والدمع أشفاه ساجمة

المعنى: «وفاؤكما يا صاحبى بإسعادى على البكاء كهذا الربع، ثم بين وجه الشبه فقال: أشجى الربع دارسه وأشفى الدمع ساجمه[1]».

وقوله:

أنى يكون أبا البرايا[2] آدم وأبوك والثقلان[3] أنت محمد

المعنى: «كيف يكون آدم أبا البرايا وأبوك محمد وأنت الثقلان».

هذا إلى كثير من أمثاله، مما ركب فيه الصعب، وظهر فيه التقيد اللفظى والمعنوى، وكان أبو الطيب كثير الافتنان فى الأساليب فيورد المعنى المبتذل فى ثوب قشيب وأسلوب جيد السبك، حتى يصير كالحسناء تعجب النظارة وربما أتبعه بما يوضح غامضه من تذييل بمثل أو حكمة، حتى يسوغ لك فى كثير من المواطن أن تضع أداة استفهام بين شطرى البيت للدلالة على أن الثانى جواب عن سؤال نشأ من الأول. وهذا ما يسميه علماء المعانى بشبه كمال الاتصال كقوله:

أفاضل الناس أغراض لذا الزمن يخلو من الهم أخلاهم من الفطن

وقوله:

---

(١) منهملة.

(٢) جمع البرية أى الخلق.

(٣) الإنس والجن.

لولا المشقة ساد الناس كلهم الجود يفقر والإقدام قتال

وقوله:

من يهن يسهل الهوان عليه ما لجرح بميت إيلام

وما أشبه هذا الأسلوب بطريقة البحث التى ابتكرها سقراط فيلسوف اليونان وواضع علم الأخلاق، وسميت طريقة التوليد فقد كان يتحدث إلى تلاميذه فيسأل ثم يجيب ولا يزال فى حوار مع تلاميذه حتى يصل إلى النتيجة التى يريدها، إذ كان يعتقد أن النفس مشتملة على الحقائق كما تشتمل الأم على الجنين وأن عمل الفيلسوف هو استخراج الحقائق من النفس كما أن عمل القابلة هو استخراج الجنين من الأم.

وهذه الطريقة هى التى ارتضاها علماء التربية، فلا غرو إذا سمينا سقراط بالأستاذ الأول. وكثيراً ما كان المتنبى يقصد إلى الأسلوب التعليمى فى شعره، فيورد المعنى الواحد فى أساليب مختلفة ليثبت فى الأذهان، ويسهل على اللسان فيجرى على ألسنة الناس بصور مختلفة وأساليب عدة كقوله:

من اقتضى بسوى الهندى[1] حاجته أجاب كل سؤال عن هل بلم

مع قوله:

من أطاق التماس شىء غلابا[2] واقتسارا لم يلتمسه سؤالا

مع قوله:

---

(١) السيف.

(٢) غلابا وإقتار أى غلبة وقهرا.

وما الحسن فى وجه لفتى شرفا له ولكنه فى فعله والخلائق

مع قوله:

إذا لم تشاهد غير حسن شيلتها[1] وأعضائها فالحسن عنك مغيب

وكقوله فى المدح بالجود والشجاعة:

مع قوله:

كأنك فى الإعطاء للمال مبغض وفى كل حرب للمنية عاشق

وقد نهج أبو الطيب فى شعره أحيانا نهج الواعظ المرشد، يأمر وينهى، ويسرد الحكم، ويضرب الأمثال، وهذا ما يسميه أدباء الغرب بلهجة «الأستاذية» وقد حداه إلى ذلك غروره بنفسه، ولا سيما إذا كان يخاطب أميراً أو عظيمًا كقوله يخاطب كافوراً:

فلا ينحلل فى المجد مالك كله فينحل مجد كان بالمال عقده

ودبره تدبير الذى المجد كفه إذا حارب الأعداء والمال زنده[2]

كان المتنبى أحيانا يذكر أشياء متفرقة ثم يتبعها بحكم عام من مثل أو حكمة وهذا يشبه ما يسميه علماء البديع بالجمع كقوله:

بم التعلل لا أهل ولا وطن ولا نديم ولا كأس ولا سكن

أريد من زمنى ذا أن يبلغنى ما ليس يبلغه فى نفسه الزمن

وكقوله:

---

(١) جمع شية السمة والعلامة.

(٢) الزند موصل سرف الدراع فى الكف.

وجـــدت الملامـــة غـــلابة تهـــيج من القلب أشـــواقـــه

تـسيء مـن المرء تـأديبـــــه ولكـن تحـــسن أخـــلاقـــه

وأنفس مـــا للفـــتى لبـــه وذو اللب يكره إنفـــاقـــه

والمستقصى شعر المتنبى يرى فيه أسلوبا خطابيا أى أسلوب الخطباء الذين يقصدون إلى الفخر تارة وإلى التهديد والوعيد أخرى، ويختارون له الألفاظ السهلة، والأساليب المكررة، ليفطن له السامع وقد تأثر به شعراء الجاهليين كعمرو بن كلثوم فى معلقته والحرث بن عباد فى قصيدته إذ يقول الأول فى معلقته يفتخر بقومه:

وقد علم القبائل من معد إذا قبب بأبطحها بنينا

بأنا المطعمون إذا قدرنا وأنا المهلكون إذا ابتلينا

وإنا المانعون لما أردنا وإنا النازلون بحيث شينا

ويقول الحرث بن عباد فى قصيدته التى حض فيها بكراً على الأخذ بثار ابنه بجير من مهلهل التغلبى:

قربا مربط النعامة[1] منى أن بيع الكريم بالشسع[2] غال

قربا مربط النعامة منى لقحت[3] حرب وائل عن حيال[4]

لم أكن من جناتها علم الله وإنى بشرها اليوم صال

(١) اسم فرس الحرث من عباد.

(٢) سير يشد به النعل.

(٣) لقحت الناقة حملت وقبلت لقاح الفحل.

(٤) العقم وعدم الحمل.

فنسج على منوالهما المتنبى فقال:

أنا ابن اللقاء أنا ابن السخاء أنا ابن الضراب أنا ابن الطعان

أنا ابن الفيافى أنا ابن القوافى أنا ابن السروج أنا ابن الرعان[1]

طويل النجاد طويل العماد طويل القناة طويل السنان

وقد يبهرك المتنبى حينما تقرأ شعره الذى تمثلت فيه العواطف المختلفة، من تعجب واستفهام، وتحسر واستهجان، وفرح وترح، مما يظهر عادة على مسارح التمثيل فتتأثر به ألوان الوجوه التى هى مرآة ترتسم عليها الانفعالات النفسانية. ويحدث ذلك من تكرار النداء أو الاستفهام أو التعجب كقوله:

عيد بأى حال عدت يا عيد بما مضى أو لأمر فيك تجديد

وكقوله فى التغزل:

أريقك أم ماء الغمامة أم خمر بفى برود وهو فى كبدى جمر

إذا الغصن أم ذا الدعص[2] أم أنت فتنة وذيا الذى قبلته البرق أم ثغر

وهذا الأسلوب يجدر أن يسمى الأسلوب التمثيلى، لا بمعنى التمثيل المعروف بل بمعنى أخص منه لأن من ينشد هذه الأبيات ونحوها يمثل معانيها فى حركاته وإشاراته ولون وجهه وجرس نغمه.

---

(١) جمع رعن أنف الجبل.

(٢) كثيب الرمل المجتمع.

معانيه وأخيلته

قصد المتنبى إلـى المعانى التى تعتلج فى صدور الناس وتعـبر عن آمالهم وآلامهم فـأبرزها فى عبارات جيـدة السبك وفى أسلوب يشعـر بالعظمة تارة وينم عن الرقة وسلامة الذوق أخرى فظهـرت المعانى فى صور رائعة وأساليب طريفـة فارتسـمت فى الصدور وحـركت كامن الشـعور وجـرت على ألسنة الخاصـة والعامة ورددها لسـان الكون حتى عمـت المشرقين وطبقت الخـافقين وكأن هذه المعـانى كانت مواتا فأحـياها فأقر الـناس بأنها له نزولا على حكم الشرع «من أحيا أرضًا ميتة فهى له».

الشعر التمثيلى والقصصى:

لم يقتـبس شعراء العرب من أدب اليـونان فيحاكـوا شعرهم التمـثيلى والقصصى كما اقتبسوا من حكتهم وفلسفتهم ولعل الـسر فى ذلك أمران:

الأول: إن العرب لم ينقلوا شعر اليونان كما نقلوا علومهم وفلسفتهم.

الثانى: مـحافظة العرب علـى أسلوب شعرهم القـديم إذ كان ولا يزال أكبر مميزاتهم وعنوان خصائصهم.

المتنبى وحكم أرسطو

أسبقنا الكلام على فلسفة المتنبى وأثبتنا له آراء خاصة فى الحياة أودعها أبياته الحكيمة وشعره الواعظ ووافق فيها أرسطو ولست أدرى ولا المنجم يدرى أنعد ذلك من توافق الخواطر بينهما وهو اتفاق عجيب لم نعهد مثله بين نابغين مفكرين ينتمى كل منهما إلى أمة وعصر وحضارة تباين كل المباينة ما ينتمى إليه الآخر من ذلك أم نقول أن أبا الطيب الذى عاش فى القرن الرابع الهجرى درس فلسفة أرسطو الذى عاش فى القرن الرابع قبل المسيح وعدها تراث الحكماء وعقدها فى شعره ويعزز هذا الرأى أن شاعرنا وجد فى عصر شغل فيه العلماء بترجمة علوم اليونان من طب ومنطق وهيئة وهندسة وحكمة وفلسفة فليس بغريب أن يكون المتنبى وقف على آراء أرسطو وفلسفته فى الحياة ونظمها فرائد فى شعره.

غير أنه لا يمكننا الجزم فى كلا الاحتمالين برأى قاطع وعلى كلتا الحالتين فالمتنبى بالغ غاية الفضل ونهاية النبل فإن آراءه إن كانت نتيجة بحث ودرس فقد تعمق فيه تعمق الفلاسفة وإن كان قد نقلها عن أرسطو فقد زاد عليه الإيجاز والبلاغة والنظم وأضاف ثروة جديدة إلى لغته مما يشهد له بفضل علمه وغزارة أدبه وإنا لذاكرون طائفة من موافقات المتنبى وأرسطو أو قل من حكم أرسطو التى نقلها المتنبى لتكون قيد الخواطر وشرك النواظر.

أرسطو: إذا كانت الشهوة فوق القدرة كان هلاك الجسم دون بلوغ الشهوة.

المتنبى: **وإذا كانت النفوس كبارًا تعبت فى مرادها الأجسام**

أرسطو: من استمرت عليه الحوادث لم يألم بحلولها.

المتنبى: **إذا اعتاد الفتى خوض المنايا فأهون ما يمر به الوحول**

أرسطو: تعلقب أيام الزمان مفسدة لأحوال الحيوان.

المتنبى: **فما ترجى النفوس من زمن أحمد حاليه غير محمود**

أرسطو: الألفاظ المنطقية مضرة بذوى الجهل لنبو إحساسهم عن دركها.

المتنبى: **بذى الغباوة من إنشادها ضرر كما تضر رياح الورد بالجعل**

أرسطو: ترداد حركات الفلك يحيل الكائنات عن حقائقها.

المتنبى: **ومن صحب الدنيا طويلا تقلبت على عينه حتى يرى صدقها كذبا**

أرسطو: قد يفسد العضو لصلاح أعضاء كالكى والفصد اللذين يفسدان الأعضاء لصلاحها.

المتنبى: **لعل عتبك محمود عواقبه وربما صحت الأجسام بالعلل**

أرسطو: لسنا نمنع عن الائتلاف بالأرواح وإنما نمنع عن اجتماع الأجسام فإن ذلك من طبائع البهائم.

المتنبى: **وما كل من يهوى يعف إذا خلا**

عفافى ويرضى الحب والخيل تلتقى

أرسطو: الدنيا تطعم أولادها وتأكل مولودها.

المتنبى: **أبدا تسترد ما تهب الدنـ ـيا فليت جودها كان بخلا**

أرسطو: النظر إلى ما يكره الإنسان يسقم القلب.

المتنبى: **واحتمال الأذى ورؤية جانيـــه غذاء تضوى به الأجسام**

أرسطو: الجبن ذلة كامنة فى نفس الجبان فإذا خلا أظهر الشجاعة.

المتنبى: **وإذا ما خلا الجبان بأرض طلب الحرب وحده والنزالا**

أرسطو: من أفنى مدته فى جمع المال خوف العدم فقد أسلم نفسه للعدم.

المتنبى: **ومن ينفق الساعات فى جمع ماله مخافة فقر فالذى فع الفقر**

أرسطو: حللو الفناء فى عظيم الأمور كحلوله فى صغيرها.

المتنبى: **فطعم الموت فى أمر حقير كطعم الموت فى أمر عظيم**

أرسطو: أتعب الناس من بعدت همته، واستعت معرفته وضاقت مقدرته.

التنبى: **وأتعب خلق الله من زاد همه وقصر عما تشتهى النفس وجده**

أرسطو: الظلم من طبع النفس وإنما يصدها عن ذلك إحدى علتين إما علة دينية لخف معاد وإما علة سياسية لخوف السيف.

المتنبى: **والظلم من شيم النفوس فإن تجد ذا عفة فلعلة لا يظلم**

أرسطو: النفس الشريفة ترى الموت بقاء لدركها أماكن البقاء وهذه حال يعجز الخلق عن ركوبها.

المتنبى: **سبحان خالق نفسى كيف لذتها فيما النفوس تراه غاية الألم**

أرسطو: أعجز العجزة من قدر أن يزيل العجز عن نفسه فلم يفعل.

المتنبى: **ولم أر فى عيوب الناس شيئًا كنقص القادرين على التمام**

سرق المتنبى من الشعراء

ذكرنا فى الفصل السابق ما اقتبسه المتنبى من حكم أرسطو. وسنذكر فى هذا الباب طائفة من سرقاته من الشعراء، ممهدين لذلك بذكر أنواع من هذا الباب الغامض، الذى لا يقدر أحد من الشعراء أن يدعى السلامة منه، وهذه الأنواع منها النسخ أو الاهتدام، والنظر أو الملاحظة، والعكس، والإغارة والسرق.

فالنسخ أو الاهتدام هو سرق ما دون البيت كقول النجاشى:

وكنت كذى رجل رجلين صحيحة ورجل رمت فيها يد الحدثان

فقد نسخه كثير فأخذ الشطر الثانى وغير لفظه فقال: «ورجل رمى فيها الزمان فشلت». وأما النظر أو الملاحظة فهو أن يتساوى المعنيان دون اللفظ مع خفاء الأخذ كقول أبى الشيص «جد الملامة فى هواك لذيذة».

نظر فيه أبو الطيب فقال: «أأحبه وأحب فيه ملامة».

أما العكس فهو أن يغير البيت فيجعل مكان كل لفظة ضدها، كقول ابن أبى قيس ويروى لأبى حفص البصرى:

سود الوجوة لئيمة أحسابهم فطس الأنوف من الطراز الآخر

فقد عكس بيت النابغة الذبيانى فى مدح آل جفنة:

بيض الوجوه كريمة أحسابهم شم الأنوف من الطراز الأول

والإغارة: أن يذكر الشاعر معنى بديعًا فيتناوله من هو أعظم منه ذكرًا، فيروى له دون قائله كما فعل الفرزدق بجميل وقد سمعه ينشد:

نرى الناس ما سرنا يسيرون خلفنا وإن نحن أومأنا إلى الناس وقفوا

فقال متى كان الملك فى بنى عذرة، إنما هو فى مضر وأنا شاعرها، فغلب الفرزدق جميلا على هذا البيت وروى له:

أما السرق فهو أن ينقل معنى البيت دون لفظه مع بعد المأخذ وسيأتى أمثلته فى سرق أبى الطيب. سئل أبو عمرو بن العلاء أرأيت الشاعرين يتفقان فى المعنى ويتواردان فى اللفظ، لم يلق واحد منهما صاحبه، ولم يسمع شعره فأجاب تلك عقول الرجال توافت على ألسنتها. وسئل أبو الطيب عن مثل ذلك فقال: الشعر جادة، وربما وقع الحافر على موضع الحافر، ورغم ما أجاب به فإنا لا نبرئ ساحته من اختلاسه معانى الشعراء والتصرف فيها بالاختراع حتى يشرف لفظها، ويسمو معناها، فنسب إليه بقانون وضع اليد إن صح هذا التعبير.

طائفة من سرقاته

بشار بن برد:

كأن مثار النقع فوق رءوسنا وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

أخذه أبو الطيب وذكر الرماح مكان الأسياف فقال:

وكأنما كسى النهار بها دجى ليل وأطلعت الرماح كواكبا

مسلم بن الوليد:

أرادوا ليخفوا قبره عن عدوه فطيب تراب القبر دل على القبر

ألم به أبو الطيب فقال:

وما ريح الرياض لها ولكن كساها دفنهم فى الترب طيبًا

أبو نواس وهو من قلائد شعره فى وصف الخمر:

إذا ما أتت دون اللهاة من الفتى دعاهمه من صدره برحيل

نقله أبو الطيب إلى معنى آخر فقال:

وما هى إلا لحظة بعد لحظة إذا نزلت فى قلبه رحل العقل

بعض العرب وهو من الأمثال السائرة:

إذا بل من داء به ظن أنه نجا وبه الداء الذى هو قاتله

أخذه أبو الطيب فقال وأحسن:

وإن أسلم فما أبقى ولكن سلمت من الحمام إلى الحمام

عبد الله بن طاهر:

وجربت حتى لا أرى الدهر مغربا على بشىء لم يكن فى تجاربى

أخذه أبو الطيب فقال:

قد بلوت الخطوب حلوًا ومرًا وسلكت الأيام حزنا وسهلا

وقتلت لزمان علما فما يغـ ـرب قولا ولا يجدد فعلا

قال ابن المعتز فى عجز بيت «فالشمس نمامة والليل قواد».

أخذ المتنبى هذا المعنى ونظمه فى بيت من قلائد شعره بل هو أمير شعره وهو:

أزورهم وسواد الليل يشفع لى وأنثنى وبياض الصبح يغرى بى

ولا يخلو المتنبى من إحدى ثلاث، إما أن يكون قد ألم بهذا المصراع فحسنه وزينه، وصار أحق به وأولى، وإما أن يكون عثر بالموضع الذى عثر به ابن المعتز فأربى عليه، وزاد فى معناه، وإما أن يكون قد اخترع المعنى وابتدعه، وتفرد به، فللهدره، وناهيك بشرف لفظه، وبراعة نسجه، وقد أحسن إذ جمع أربع مطابقات فى بيت واحد. وكان الناس يعجبون من البحترى إذ جمع ثلاث مطابقات فى بيت واحد وهو قوله:

وأمة كان قبح الجور يسخطها دهرًا فأصبح حسن العدل يرضيها

حتى جاء أبو الطيب فزاد عليه مع عذوبة اللفظ، ورشاقة الصنعة.

والقرآن الكريم هو المثل الأعلى فى ذلك فقد جمع بين أربع مطابقات فى قوله تعالى: «فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى».

الغزل ووصف الحرب

قد انفرد أبـو الطيب باستعمـال ألفاظ الغزل فى أوصاف الحـرب، فقد حذق ذلك وأعرب به عن مهارته فى التلاعب بالألفاظ، والتصرف فى مناحى القول. فمن ذلك قوله:

أعلى الممالك ما يبنى على الأسل والطعن عند محبيهن كالقبل

وقوله وهو من فرائده:

شجاع كان الحرب عاشقة له إذا زارها فدته بالخيل والرجل

قوله:

وكم رجـال بلا أرض لكـثـرتهم تركت جـمـعـهم أرضًـا بلا رجل

مـا زال طرفك يجـرى فى دمـائهم حتى مشى بم مـشى الشارب الثمل

وقد تقدم أمثلة لذلك.

ولعه بالتصغير

أولع المتنبى بالتصغير إلى حد لم يرد عن شاعر غيره. وقد سأل ابن القارح أبا العلاء المعرى عن ذلك فأجاب كما فى رسالة الغفران «كان الرجل مولعًا بالتصغير، لا يقنع منه بخلسة المغير، ولا ملامة عليه، إنما هى عادة صارت كالطبع تغتفر مع المحاسن» وقد أصاب العرى فى حكمه، إذ هى لوازم يختلف فيها شاعر عن شاعر. كما تختلف الوجوه والسمات، وسماها المعرى عادة كالطبع إذ هى مرآة طبعه وخلقه.

وسبب ذلك شموخ شاعرنا بأنفه، وغلوه فى استعظام نفسه، إذ كان يعد نفسه فى مصاف العظماء والملوك فيقول فى تهنئة كافور:

إنما التهنئات للأكفاء ... ولمن يدنى من البعداء

وفؤادى من الملوك وإن كا ... ن لسانى يرى من الشعراء

وأكبر مظاهر العظمة عنده مبالغته فى شعره تارة، وولوعه بالتصغير أخرى، ألا ترى إعجابه بالعظمة باديا، والتشدق بطنين الألقاب مجسمًا، وترى نفسه منطوية على شوق للمجد لا تشتفى لوعته، وحقد على الدنيا لا تفثأ حميته.

وغيظ على الأيام كالنار فى الحشا ... ولكنه غيظ الأسير من القد

فإذا ازدرى شيئًا ضئيلا أو رجلا حقيرا فهو ازدراء يشوبه الضغن، ويضاعفه العظمة التى ادعاها لنفسه، فإذا الشىء شوى، وإذا الرجل رجيل، وأكثر ما يقصد إلى التصغير حين يهجو مغيظا محنقا أو يستخف متعاليا محتقرا كقوله فى كافور:

أولى اللئام كويفير بمعذرة فى كل لؤم وبعض العذر تفنيد

أو قوله فيه:

أخذت بمدحه فرأيت لهواً مقالى للأحيمق يا لئيم

أو يقول:

ثوبيه لم تدر أن بنيها النـــــــويبى دون الناس يعبد فى مصرا

أو حين يقـول فى ذم أهل زمـانه «أذم إلى هـذا الزمـان أهيله» أو حين يقول فى الشعراء الذين يزاحمونه «أفى كل يوم تحت ضبى شويعر» أو إذا أراد أن يحتقر قوما قصرت بهم أعمالهم عن السمو إلى ما يتطلعون إليه كقوله فى بنى كلاب:

أرادت كلاب أن تفوز بدولة لمن تركت رعى «الشويهات» والإبل

وهو إذا لم يصغر المهـجو باللفظ صغره بالمعنى فكان أعداؤه عنده شـيئًا حقيراً.

لا يستخفن الفتى بعدوه أبداً وإن كان العدو ضئيلا

آثاره

نثره:

للمتنبى نثر لطيف يذكرنا بنثر البديع الهمذانى والصاحب بن عباد فى حسن تدبيجه وبديع خياله ولم يصل إلينا منه غير أسطر قليلة. من ذلك أنه مرض مرة فكان له صديق يعوده فلما أبل انقطع عنه فكتب إليه يقول: «وصلتنى وصلك الله معتلا وقطعتنى مبلا فإن رأيت ألا تحبب العلة إلى ولا تكدر الصحة على فعلت إن شاء الله».

ديوانه:

كان المتنبى يختار من قصائده أحسنها فيكتبها فى دفاتر يحملها معه أينما توجه فيعيد النظر فيها ويقرؤها على بعض النحويين كابن جنى وغيره. ولما قتل جمعت أشعاره ورتبت على الحروف الأبجدية وهو ديوان شعره وقد طبع فى الهند ومصر والشام وأوروبا - وكانت شهرته أثارت الحسد فى قلوب كثير من الأدباء والشعراء فتصدوا لانتقاده وتخطئته وقام أنصاره يدافعون عنه فى كل مصر وزمان منذ ألف سنة إلى اليوم حتى بلغت شروح ديوانه نحو خمسين مصنفا منها ما هو مخطوط وما هو مطبوع وأشهرها شرح العكبرى وبهامشه كتاب الصبح المنبى عن حيثية المتنبى.

وأحدث شروحه شرح العلامة الشيخ ناصيف ليازجى وأتمه ابنه الشيخ إبراهيم واسمه «العرف الطيب فى شرح ديوان أبى الطيب». وأفرد أبو منصور الثعالبى فى كتابه «يتيمة الدهر» نحو سبعين صفحة فى محاسن المتنبى ومساوئه.

متناول كلامه

تناول شعر المتنبى كثيراً من الأغراض المشهورة كالمدح والهجاء، والوصف والرثاء، والفخر والاعتذار، وقد سبق نماذج له فى بعض هذه الأغراض.

المدح:

سلك المتنبى فى مديحه سبيل الإيضاح والإشادة بذكر الممدوح مع الإطالة فيه فلم يعمل بوصية جرير لبنيه فى ذلك. إذ قال لهم يا بنى ذا مدحتم فلا تطيلوا المادحة، فإنه ينسى أولها، ولا يحفظ آخرها، وإذا هجوتم فخالفوا، ولم يأبه لقول الشاعر:

وإذا امرؤا مدح امرأ لنواله ... وأطال فيه فقد أراد هجاءه

لو لم يقدر فيه بعد المستقى ... عند الورود لما أطال رشاءه

قال أهل الأدب: إن الفضائل الإنسانية التى يمدح بها الإنسان بحق. هى العقل، والعفة، والعدل، والشجاعة، فهل مدائح شاعرنا تحوى هذه الفضائل؟ إن من اطلع على مدائح المتنبى فى سيف الدولة أو غيره ممن مدحهم يرى مدائحه دائرة حول هذه الفضائل، وربما كانت الأبيات القليلة منها تشملها كلها. اقرأ أبياته الثلاثة الآتية فى مدح سيف الدولة، تعلم أنه مدحه فيها بالشجاعة والكرم والذكاء الذى هو نتاج العقل إذ يقول:

تظل ملوك الأرض خاشعة له ... تفارقه هلكى وتلقاه سجدا

وتحيى له المال الصوارم والقنا ... ويقتل ما يحيى التبسم والجدا

ذكى تظنيه طليعة عينه ... ترى قلبه فى يومه ما ترى غدا

جارى المتنبى الشعراء الجاهليين فى استهلال مدائحه بالنسيب، وذكر الطلول والرسوم، فهو فى ذلك من المحافظين إذ يقول:

بليب بلى الأطلال إن لم أقف بها وقوف شحيح ضاع فى الترب خاتمه

بيد أنه كان أحيانا لا يحسن التخلص من النسيب إلى المديح، فقد كان تخلصه ضعيفًا تافهًا فى قصيدته التى مدح بها أبا سهل سعيد بن عبد الله إذ قال:

عل الأمير يرى ذلى فيشفع لى إلى التى تركتنى فى الهوى مثلا

أيقنت أن سعيدًا طالب بدمى لما بصرت به بالرمح معتقلا

فقد تمنى فى البيت الأول أن يكون له الأمير قوادًا ثم أتبعه بالبيت الثانى الذى هو مقو لمعناه فى القيادة فدل على أنه يشفع له فإن أجيب إلى مساعدة أبى الطيب فذاك والأرجع إلى القهر ولم يستطع أن يقول كما قال أبو نواس:

سأشكو إلى الفضل بن يحيى بن خالد هوانا لعل الفضل يجمع بيننا

أمير رأيت المال فى نعماته مهينًا ذليل النفس بالضيم موقنا

فإن أبا نواس قال يجمع بيننا، ولم يقل يشفع والشفاعة رغبة وسؤال ثم أتبع ذلك بذكر المال والسخاء، فكأنه أشار إلى أن جمعه بينهما بالمال خاصة بأن يجزل نواله فيتزوجها أو يتسرى بها ومما عيب على أبى الطيب أيضًا قوله فى ممدوحه هذا:

لو استطعت ركبت الناس كلهم إلى سعيد بن عبد الله بعرانا

فانظر إلى تخلصه الدال على فساد ذوقه إذ يريد أن يجعل الناس جمالا فيركبهم إلى ممدوحه حتى قال الصاحب ابن عباد ومن الناس أمه فهل ينشط لركوبها إلى ممدوحه:

وأين هذا فى حسن التخلص من قول أبى تمام يمدح عبد الله بن طاهر:

تقول فى قومس قومى وقد أخذت منا السرى وخطا المهرية القود

أمطلع الشمس تبغى أن تؤم بنا فقلت كلا ولكن مطلع الجود

ورغم هذا فإنا لا نبخس المتنبى حقه، ولا نغمطه فضله، فى قصائد استهلها بالأبيات السائرة، والحكم النادرة، ورجع فيها إلى فطرته من حب العظمة، فجرت على لسان الأدباء منذ ألف سنة وستبقى إلى ما شاء الله فما أبدع ابتداءاته إذ يقول فى قصيدة يمدح بها سيف الدولة:

لكل امرء من دهره ما تعودا وعادة سيف الدولة الطعن فى العدا

ويقول فى أخرى:

فديناك من ربع وإن زدتنا كربا فإنك كنت الشرق للشمس والغربا

وقوله: أتراها لكثرة العشاق تحسب الدمع خلقة فى المآقى

نماذج من شعره: ١ - فى المديح

ومن جيد شعره قوله يمدح سيف الدولة ويذكر بناء ثغر الحدث وهى قلعة للروم استولى عليها سيف الدولة بعد قتال عنيف سنة ٣٤٣ وهى من النصوص:

على قدر أهل العزم تأتى العزائم ... وتأتى على قدر الكحرام المكارم

ويعظم فى عين الصغير صغارها ... وتصغر فى عين العظيم العظائم

يكلف سيف الدولة الجيش همه ... وقد عجزت عنه الجيوش الخضارم[١]

ويطلب عند الناس ما عند نفسه ... وذلك ما لا تدعيه الضراغم[٢]

يفدى أتم الطير عمرا سلاحه ... نسور الفلا أحداثها والقشاعم[٣]

وما ضرها خلق بغير مخالب[٤] ... وقد خلقت أسيافه والقوائم[٥]

هل الحدث الحمراء تعرف لونها ... وتعلم أى الساقيين الغمائم

سقتها الغمام الغر قبل نزوله ... فلما دنا منها سقتها الجماجم[٦]

بناها فأعلى والقنا يقرع القنا ... وموج المنايا حولها متلاطم

وكان بها مثل الجنون فأصبحت ... ومن جثث القتلى عليها تمائم[٧]

---

(١) الخضارم بفتح الخاء جمع خضرم وهو الكثير من كل شىء.

(٢) جمع ضرغام وهو الأسد.

(٣) النسور الطويلات العمر.

(٤) جمع مخلب وهو الظفر لسباع الطير.

(٥) جمع قائم وهو للسيف مقبضة.

(٦) جمع جمجمة وهو العظم فيه الدماغ.

(٧) جمع تميمة وهو العوذة من سحر أو مرض.

طريدة[1] دهر ساقها فرددتها ... على الدين بالخطى[2] والدهر راغم[3]

تفيت الليالى كل شىء أخذته ... وهن لما يأخذن منك غوارم

وقال أيضًا يمدح سيف الدولة:

ملك[4] سنان قناته وبنانه ... يتباريان دما وعرفا[5] ساكبا

كالبدر من حيث التفت رأيته ... يهدى إلى عينيك نورا ثاقبا

كالشمس فى كبد السماء ووءها ... يغشى البلاد مشارقا ومغاربا

كالبحر يقذف للقريب جواهرا ... جودا ويبعث للبعيد سحائبا

ومن مدائحه فى كافور:

ولله سر فى علاك وإنما ... كلام العدا ضرب من الهذيان[6]

أتلتمس الأعداء بعد الذى رأت ... قيام دليل أو وضوح بيان

رأت كل من ينوى لك الغدر يبتلى ... بغدر حياة أو بغدر زمان

قضى الله يا كافور أنك واحد ... وليس بقاض أن يرى لك ثان

فمالك تختار القسى وإنما ... عن السعد ترمى دونك الثقلان

ومالك تعنى بالأسنة والقنا ... وجدك[7] طعان بغير سنان

ولم تحمل السيف الطويل نجاده ... وأنت غنى عنه بالحدثان[8]

لو الفلك الدوار أبغضت سيره ... لعوقه شىء عن الدوران

---

(١) طريد أى مطرودة فهى فعيلة بمعنى مفعولة. (٢) الرماح.

(٣) أى كاره وأصل الرغم أن يلتصق الأنف بالرغام أى التراب.

(٤) السنان حديدة مدببة توضع فى طرف القناة. (٥) المعروف.

(٦) هذى تكلم بغير معقول لمرض. (٧) حظك. (٨) حدثان الدهر نوائبه.

٢ - الهجاء

لم يسلك أبو الطيب فى هجائه سبيل التعريض أو التلويح، ولم يكن رأيه فى الهجاء، رأى أبى عمرو بن العلاء، إذ قال خير الهجاء ما تنشده العذراء فى خدرها، فلا يقبح بمثلها كما جاوز فيه أدب الإسلام الذى شدد النكير على الهجاء المقذع، فقد قال سيد الخلق: «من قال فى الإسلام هجاء مقذعًا فلسانه هدر» وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه للحطيئة: إياك والهجاء المقذع، قال وما المقذع يا أمير المؤمنين، فأجابه، أن تقول هؤلاء أفضل من هؤلاء، وتبنى شعرًا على مدح قوم وذم لمن تعاديهم».

والمتنبى كثيرا ما خالف أدب عمر فى هذا ألا ترى أبياته التى فضل فيها سيف الدولة على كافور إذ يقول:

وفارقت خير الناس قاصد شرهم وأكرمهم طرا لأ لأمهم طرا

أضف إلى ذلك أنه خرج به عن وجه البلاغة، فقد أجمع الأدباء رأيهم على أن أبلغ الهجاء ما سلك به سبيل التهكم، وما اعترض بين التصريح والتعريض وما قربت معانيه فعلق بالقلب، ولصق بالنفس، وما عدا ذلك فهو سباب وفحش، وهو ما قصد إليه المتنبى فى هجائه، فهو إذا هجا نفث كل حقده على وجه لا يترك للمهجو رجاء فى معاودته، حتى إذا أراد بعد ذلك مدحه ما أمكنه غسل ما لحق بالمهجو من تلك الوصمات التى ألصقها به فأسقطه إلى الأبد هذا كافور الأخشيد وهذا ابن ضبة الذى كان هجاؤه والتعرض لأمه سببا فى قتله، انظر كيف أفحش فى هجائهما ماذا يفيد المدح فى عبد يقال فيه:

لا تشتر العبد إلا والعصا معه أن العبيد لأنجاس مناكيد

وكيف يغسل المدح من رجل دنس عرضه بمثل قوله:

كـــــذا خلقت ومن ذا الـ ـذى يـخـــــــالف ربه

إن أوحـــشـــتك المعـــالى فـــإنهـــا دار غـــربة

أو آنســـــتك المخـــازى فـــإنهـــا لك نســـبـــة

ومن قوله يهجو كافورا:

العـبـد ليس لحـر صـالح بأخ لو أنه فى ثيـاب الحـر مـولود

من علم الأسود المخصى[1] مكرمة أقـومه البيض أم آباؤه الصيد[2]

أم أذنه فى يد النخاس[3] دامية أم قـدره وهو بالفلسين[4] مـردود

وذاك أن الفحول البيض عاجزة عن الجميل فكيف الخصية السود

---

(١) المخصى: من سل خصياه.

(٢) جمع أصيد وهو مائل العنق كبرا.

(٣) بياع الدواب والرقيق وحرفته النخاسة بفتح النون وكسرها.

(٤) الفلس بفتح الفاء أقل النقود قيمة.

٣ - الفخر

هو المدح نفسه غير أن الشاعر يخص به نفسه وقومه وكل ما حسن فى المدح حسن فى الفخر كما أن ما قبح فيه قبح فى الفخر وقد كان المتنبى فخورا بنفسه يعدها فى مرتبة الملوك ويحسب الناس دونه فيقول لكافور الأخشيد ملك مصر:

إنما التهنئات للأكفاء ... ولمن يدنى[1] من البعداء

وأنا منك لا يهنىء عضو ... بالمسرات سائر الأعضاء

وفؤادى من الملوك وإن كا ... ن لسانى يرى من الشعراء

ومن قوله فى الفخر:

ورب جواب[2] عن كتاب بعثته ... وعنوانه للناظرين قتام[3]

حروف هجاء الناس فيه ثلاثة ... جواد ورمح ذابل وحسام

وقوله:

ومرهف سرت بين الجحفلين به ... حتى ضربت وموج الموت لتطم

فالخيل والليل والبيداء تعرفنى ... والسيف والرمح والقرطاس والقلم

وقوله:

كم تطلبون لنا عيبا فيعجزكم ... ويكره الله ما تأتون والكرم

---

(١) يتقرب فهى افتعل من دنا.

(٢) يريد جيشا ولما سمى الجيش جوابا جعل حروفه. جوادا ورمحا وحساما.

(٣) غبار.

إذا رأيت نيـــوب الـليـث بارزة فـــلا تظنن أن الـليث يبـــتـــسم

وقوله:

وما كمد الحساد شيء قصدته ولكنه من يزحم البحر يغرق

٤ - الوصف

هو أهم الفنون التى برع فيها أبو الطيب حتى استحق أن يسمى الشاعر الوصاف فقد أبدع فى وصف مناظر الطبيعة من البساتين النضرة والمياه الجارية ووصف الإبل والجياد والغزلان والآساد.

ومن جيد وصفه قوله يصف شعب بوان وهى من مقرر النصوص الأدبية:

مغانى[١] الشعب طيبا فى المغانى ... بمنزلة الربيع من الزمان

ولكن الفتى العربى فيها ... غريب الوجه واليد واللسان

ملاعب جنة لو سار فيها ... سليمان لسار بترجمان[٣]

طبت[٤] فرساننا والخيل حتى ... خشيت وإن كرمن من الحران[٥]

غدونا ننفض الأغصان فيها ... على أعرافها[٦] مثل الجمان[٧]

فسرت وقد حجبن الحر عنى ... وجئن من الضياء بما كفانى

وألقى الشرق[٨] منها فى ثيابى ... دنانيرا تفر من البنان

---

(١) جمع مغنى وهو المكان الذى فيه أهله.

(٢) الجن.

(٣) الذى يفسر كلام غيره بلغته.

(٤) دعت.

(٥) الحران اسم من حرن أى صار حرونًا لا ينقاد وفرس حرون إذا اشتد به الجرى وقف.

(٦) عرف الفرس الشعر الذى على ناصيته.

(٧) اللؤلؤ أو هو حب صغير من فضة يشبه اللؤلؤ.

(٨) الشرق. الشمس يقال طلع الشرق أى الشمس ولا يقال غرب الشرق.

لهـا ثـمـر تشـيـر إليك مـنهـا بأشـــربة وقـــفـن بلا أوان[1]

وأمـواه يصل[2] بهـا حـصـاها صليل الحلى فى أيدى الغـوان[3]

إذا غنى الحـمـام الورق[4] فـيـهـا أجـابتـه أغـانى القـيـان[5]

ومن بالشـعـب أحـوج من حـمـام إذا غنـى وناح إلـى البـيـان

وقـد يتـقـارب الوصـفـان جـدا ومـوصـوفـاهمـا متـبـاعـدان[6]

يقـول بشـعـب بوان حـصـانى أعن هـذا يسـار إلـى الطـعـان

فـقلت إذا رأيت أبـا شـجـاع سلـوت عن العـبـاد وذا المكان

فـإن الـناس والدنيـا طـريق إلـى من منـالـه فى الـناس ثـان

بعـضـد الدولة امتنعت وعـزت وليس لـغـيـر ذى عـضـد يدان

ولم أر قـبله شـبلى[7] هزبر كـشـبليـه ولا مـهـرى[8] رهان

وقد تقدم نماذج فى وصف الأسد والخيـل والغزال وآلات القتال فارجع إليها إذا شئت.

---

(١) جمع آنية وهى الأوعية.

(٢) يصل. يصوت.

(٣) جمع غانية وهى التى غنيت بحسنها عن الزينة.

(٤) مع ورقاء وهى التى فى لونها سواد وبياض.

(٥) جمع قينة وهى المغنية.

(٦) المعنى أنهم قد بعـدوا عن الحمام بالإنسانيـة ووصفها ولكن العـجمة يجمـعهما فـالحمام أعجم وهم أعاجم.

(٧) الشبل ولد الأسد.

(٨) المهر الصغير من الخيل.

٥ - فى الرثاء

أسلفنا الكلام فى أن رثاء أبى الطيب لم يصدر عن عاطفة حقيقية ووجدان حساس، ما عدا مراثيه فى أبى شجاع فاتك وفى أخت سيف الدولة الكبرى، وفى ابنه الصغير فمن قوله يرثى أبا شجاع:

الحزن يقلق والتجمل[١] يردع ... والدمع بينهما عصى[٢] طيع

يتنازعان دموع عين مسهد[٣] ... هذا يجىء بها وهذا يرجع

النوم بعد أبى شجاع نافر ... والليل معى والكواكب ظلع[٤]

والمجد أخسرو المكام صفقة ... من أن يعيش بها الكريم الأروع

والناس أنزل فى زمانك منزلا ... من أن تعايشهم وقدرك أرفع

ومن قوله يرثى أخت سيف الدولة الكبرى:

ولعمرى لقد شغلت المنايا ... بالأعادى فكيف يطلبن شغلا

خطبة للحمام ليس لها رد م ... د وإن كانت المسماة ثكلا

وإذا لم تجد الناس كفئا ... ذات خدر أرادت الموت بعلا

وهذا أحسن ما رثى به شاعر عقيلات الملوك.

---

(١) الصبر.

(٢) أى الدمع بين الصبر والجزع عاص للأول مطيع للثانى.

(٣) كثير الأرق.

(٤) يريد أن الليل من طوله كأنه قد أعيا من المشى فوقف وأن الكواكب كأنها ظالعة عرجاء لا تقدر على السير.

وقوله فى رثاء ابن سيف الدولة:

عـزاءك سيف الدولـة المقتـدى به ... فـإنك نصل[1] والشـدائد لـلنصل

تخـون المنايا عـهـده فـى سليله[2] ... وتنصـره بين الفـوارس[3] والرجل

ويبـقى على مـر الحـوادث صبـره ... ويبدو كما يبدو الفرند[4] على الصقل

وما الموت إلا سـارق دق شخـصه ... يصـول بلا كف ويـسـعى بلا رجل

---

(١) النصل حديدة السيف.

(٢) السليل الولد والسليلة الأنثى.

(٣) الفوارس جمع فارس وهو راكب الفرس ورجل جمع راجل وهو الماشى.

(٤) جوهر السيف ماؤه.

٦ - التغزل

التغزل والنسيب والتشبيب. هذه الكلمات تدل على معنى واحد، وهو ذكر محاسن النساء، وأحوالهن من ظعن وإقامة، وهى تباين الغزل الذى هو إلف النساء والتخلق بما يوافقهن، فمن استعمل الغزل مكان التغزل فقد أخطأ، نبه على ذلك «قدامة» فى كتابه نقد الشعر[١].

وحق أن النسيب أن يكون حلو الألفاظ، قريب المعانى، ظاهرها حسن الديباجة، يطرب الحزين ويستخف الرصين؛ وقد اعتاد الشعراء أن يبدءوا به قصائدهم، ويقدموه على أغراضهم من مدح أو غيره، استدرار لجزل القول، فما أشبه أبيات القصيدة بأعضاء الجسم التى إذا انفصل أحدها عن الآخر غادر بالجسم عاهة تنتقص محاسنه، وتنقص جماله، وقد سبق أن المتنبى كان لا يحسن التخلص أحيانا، وقد اشتهر بالنسيب فى العصر العباسى جماعة من الشعراء، منهم أبو نواس، ومسلم بن الوليد المشهور بصريع الغوانى، والبحترى. أما أبو الطيب فهو فى تغزله مقل مجيد ومن مليح تغزله قوله فى ذكر ديار محبوبته:

ودسنا بإخفاف المطى ترابها ... فلا زلت أستشفى بلثم المناسم[٢]

ديار اللواتى دارهن عزيزة ... بسمر القنا يحفظن لا بالتمائم

حسان التثنى ينقش الوشى[٣] مثله ... إذا مسن[٤] فى أجسامهن النواعم

---

(١) ونقلت ذلك من كتاب العمدة لابن رشيق ص ٩٤ جزء ثان.

(٢) المنسم كمجلس خف البعير.

(٣) وشى الثياب نقشها.

(٤) تبخترن.

ويبسمن عن در تقلدن مثله كأن التراقى[1] وشحت بالمباسم

وقوله:

إن الذين أقمت واحتملوا أيامهم لديارهم دول

الحسن يرحل كلما رحلوا معهم وينزل حيثما نزلوا

(١) جمع ترقوة العظام التى فوق الصدر.

٧ - الاعتذار والاستعطاف

الاعتذار هو الاحتجاز، من قولهم عذرت الدابة إذ جعلت لها عذارا يحجزها عن الشراد، وعذرت الرجل جعلت له بقبول ذلك منه حاجزا بينه وبين العقوبة، ومنه جارية عذراء والاستعطاف هو مصدر استعطفه سأله أن يعطف عليه.

وقد ربأ المتنبى بنفسه من الوقوع فيما يعتذر منه، أو أن كبره حمله على عدم اعترافه بما يقترفه من خطأ، ولذا يندر أن يقع نظرك فى ديوانه على أبيات يعتذر فيها، اللهم إلا قصيدته التى قالها عن لسان بنى كلاب يستعطف بها سيف الدولة عليهم، ويعتذر فيها عن خروجهم عليه، وهاك بعض أبياتها وهى مقررة فى النصوص الأدبية:

بغيرك راعيا عبث الذئاب ... وغيرك صارما[1] ثلم[2] الضراب[3]

وتملك أنفس الثقلين[4] طرا[5] ... فكيف تحوز أنفسها كلاب

وما تركوك معصية ولكن ... يعاف[6] الورد[7] والماء الشراب

طلبتهم على الأمواه حى ... تخوف أن تفتشه السحاب

---

(١) سيفا.

(٢) كسر.

(٣) المقارعة والضرب.

(٤) الإنس والجن.

(٥) جميعًا وتعرب مصدراً أو حالاً.

(٦) يستقذر.

(٧) أى ورد الماء.

فبت لياليا لا نوم فيها ... تخب[1] بك المسومة[2] العراب[3]

يهز الجيش حولك جانبيه ... كما نفضت جناحيها العقاب

ومنها: ترفق أيها المولى عليهم ... فإن الرفق بالجانى عتاب

وأنهم عبيدك حيث كانوا ... إذا تدعو لحادثة أجابوا

وعين المخطئين همو وليسوا ... بأل معشر خطئوا فتابوا

وأنت حياتهم غضبت عليهم ... وهجر حياتهم لهم عقاب

وكم ذنب مولده دلال ... وكم بعد مولده اقتراب

وجرم جره سفهاء قوم ... فحل بغير جارمه العذاب

---

(١) الخبب نوع من العدو.

(٢) المسومة من السمة أى العلامة أى الخيل ذوات الشيات.

(٣) العربية.

٨ - الاقتضاء والاستنجاز

اتصل أبو الطيب بكافور الأخشيد وكان يمنى نفسه بتقليده إياه إمارة أو ولاية، وقد وعده كافور بذلك ثم ماطله، فأخذ يستجز موعوده، وهذا ما يسمى بالاقتضاء، ومن حسنه أن يكون لطيفا شريفا، فإن الاقتضاء الخشن ربما كان سبب الحرمان، وداعية القطيعة والهجران، وقد كان اقتضاء أبى الطيب يلين الصخر، ويستنزل القطر، وقد سلك فيه سبيل أمية بن أبى الصلت فى قوله لعبد الله بن جدعان:

أأذكر حاجتى أم قد كفانى حياؤك أن شيمتك الحياء

فمن قوله فى الاقتضاء:

أبا[1] المسك ذا الوجه الذى كنت تائقا إليه وذا اليوم الذى كنت راجيا

أبا كل طيب لا أبا المسك وحده وكل سحاب لا أخص الغواديا[2]

وغير كثير أن يزورك راجل فيرجع ملكا للعراقين واليا[3]

فقد تهب الجيش الذى جاء غزيا لسائلك الفرد الذى جاء عافيا

وتحتقر الدنيا احتقار مجرب يرى كل ما فيها وحاشاك[4] فانيا

وقوله:

وفى النفس حاجات وفيك فطانة سكوتى بيان عندها وخطاب

---

(١) كنية كافور لسواد.

(٢) جمع غادية وهى السحابة التى تبدو أول النهار.

(٣) أى يلى أمر العراقين العربى والعجمى.

(٤) تنزيهًا لك وهى جملة اعتراضية دعائية.

نادرة: لما أنشد المتنبى سيف الدولة قصيدته التى مطلعها:

أجاب دمعى وما الداعى سوى طلل دعا فلباه قبل الركب والإبل

ثم ناوله نسختها ومضى فنظر فيها سيف الدولة فلما انتهى إلى قوله:

يأيها المحسن المشكور من جهتى والشكر من قبل الإحسان لا قبلى

أقل أنل اقطع احمل عل سل أعد زد هش بش تفضل ادن سر صل

فوقع سيف الدولة تحت أقل قد أقلناك وتحت أنل يحمل إليه من الدراهم كذا وتحت أقطع قد أقطعناك ضيعة كذا (ببلاد حلب) وتحت حمل يقاد إليه الفرس الفلانى وتحت عل قد فعلنا وتحت سل قد فعلنا فاسل وتحت أعد أعدناك إلى حالك من حسن رأينا وتحت زد يزاد كذا وتحت تفضل قد فعلنا وتحت ادن قد أدنيناك وتحت سر قد سررناك وقد بلغه أنه أراد سر من السرية فأمر له بجارية وتحت صل قد فعلنا وكان بحضرة سيف الدولة شيخ ظريف يسمى المعقلى فقال له يا مولاى قد فعلت به كل شىء سألكه فهلا قلت له لما قال هش بش هه هه هه يحكى الضحك فضحك سيف الدولة وقال له ولك أيضًا ما تحب وأمر له بصلة. وهذا البيت من الأبيات الجامعة وقد نسج فيه أبو الطيب على منوال ديك الجن الذى يقول:

أحل وأمرر وضروا نفع ولن واخش ورش وابر وانتدب للمعالى

وهاك طائفة من رائع ابتداءاته، وبدائع شعره، فى أغراض شتى، وقد زاد بها على من تقدم وسبق بها جميع من تأخر، فمنها حسن المطلع، كقوله يهنئ سيف الدولة بأبلاله من مرضه:

المجد عوفى إذا عوفيت والكرم وزال عنك إلى أعدائك السقم

ومنها المدح الموجه أى المدح من جهتين كالثوب ذى الوجهين كلاهما حسن كقوله لسيف الدولة:

نهبت من الأعمار ما لو حويته لهنئت الدنيا بأنك خالد

ذكر فى الشطر الأول كثرة ما استباحه من أعمار أعدائه وتلقاه فى الشطر الثانى بذكر سرور الدنيا ببقائه واتصال أيامه.

ومنها حسن التقسيم:

ضاق الزمان ووجه الأرض عن ملك ملء الزمان وملء الأرض والجبل

فنحن فى جذل والروم فى وجل والبر فى شغل والبحر فى خجل

ومنها إرسال المثل فى أنصاف الأبيات كقوله:

«وخير جليس فى الزمان كتاب»

«إن المعارف فى أهل النهى ذمم»

«مصائب قوم عند قوم فوائد»

«ومن قصد البحر استقل السواقيا»

«وربما صحت الأجسام بالعلل»

«وما خير الحياة بلا سرور»

«بجبهة العير يفدى حافر الفرس»

«والجوع يرضى الأسود بالجيف»

«وفى عنق الحسناء يستحسن العقد»

«أنا الغـريق فـمـا خـوفى من البلل»

«ومن فـرح النفس مـا يقـتل»

«ليس الكحل فى العـينين كـالكحل»

ومنها إرسال المثلين فى البيت الواحد كقوله:

وكل امرئ يولى الجميل محبب وكل مكان ينبت العز طيب

وقوله:

فى سعة الخافقين مضطرب وفى بلاد من أختها بدل

وقوله:

ذل من يغبط الذليل بعيش رب عيش أخف من الحمام

وقوله:

وأتعب من ناداك من لا تجيبه وأغيظ من عاداك من لا تشاكل

وقوله:

وما قتل الأحرار كالعفو عنهم ومن لك بالحر الذى يحفظ اليدا

ومن أبياته فى المواعظ والحكم قوله:

وما الجمع بين الماء والنار فى يدى بأصعب من أن أجمع الجد والفهما

وقوله:

وليس يصح فى الأذهان شىء إذا احتاج النهار إلى دليل

وقوله:

ما كل ما يتمنى المرء يدركه تجرى الرياح بما لا تشتهى السفن

وقوله:

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى عدوا له ما من صداقته بد

وقوله:

وإذا خفيت على الغبى فعاذر ألا ترانى مقلة عمياء

وقوله:

وإذا أتتك مذمتى من ناقص فهى الشهادة لى بأنى كامل

وقوله:

ومن الخبر بطء سيبك عنى أسرع السحب فى المسير الجهام

وقوله:

ذريتى أنل ما لا ينال من العلا فصعب العلا فى الصعب والسهل فى السهل

وقوله:

تريدين لقيان المعالى رخيصة ولابد دون الشهد من أبر النحل

وقوله:

تصفو الحياة لجاهل أو غافل عما مضى منها وما يتوقع

وقوله:

ولمن يغالط فى الحقائق نفسه ويسومها طلب المحال فتطمع

وقوله يذم الشمس لأنها تسود الوجوه ولا تسود الشعر:

تسود الشمس منا بيض أوجهنا ولا تسود بيض العذر واللمم

وكان حالهما فى الحكم واحدة لو احتكمنا من الدنيا إلى حكم

وقوله فى الشيب:

مشب الذى يبكى الشباب مشيبه فكيف توقيه وبانيه هادمه

وما خضب الناس البياض لأنه قبيح ولكن أحسن الشعر فاحمه

ومنها فى حسن المقطع قوله:

قد شرف الله أرضا أنت ساكنها وشرف الناس إذ سواك إنسانا

وقوله:

أنلت عبيدك ما أملوا أنا لك ربك ما تأمل

وقوله:

وأعطيت الذى لم تعط خلق عليك صلاة ربك والسلام

الموازنة بين أبى الطيب والطائيين
أبى تمام والبحترى

الشعر العربى المطبوع ما نظر فيه إلى فصاحة الكلام وجزالته، وبسط المعنى وظهوره وإتقان بنية الشعر وإحكام عقد القوافى، ولا يتوافر ذلك إلا فى الشعر الجاهلى، ولذا تجد أنصار القديم لا يعترفون بالشاعرية لواحد من ثلاثة الشعراء المذكورين، ولا سيما أبو الطيب بل يحذفونهم من ديوان الشعراء إذ الصنعة ظاهرة قليلا أو كثيرا فى أشعارهم. قال ابن رشيق فى كتاب العمدة «فأما أبو تمام فيذهب إلى حزونة اللفظ وما يملأ الأسماع منه مع التصنع المحكم طوعا أو كرها، يأتى إلى الأشياء من بعد، ويطلبها بكلفة، ويأخذها بقوة، وأما البحترى فكان أملح صنعة، وأحسن مذهبا فى الكلام، يسلك منه إلى الدماثة والسهولة؛ مع أحكام الصنعة وقرب المأخذ لا يظهر عليه كلفة ولا مشقة» وقال عن أبى الطيب «ثم جاء المتنبى فملأ الدنيا وشغل الناس ولا يحسن بالأديب أن يمر على هذا الحكم مر الكرام بل لابد أن يتعرف كيف ملأ الدنيا وكيف شغل الناس» وقال الشريف الرضى «أما أبو تمام فخطيب منبر، وأما البحترى فواصف جؤذر، وأما أبو الطيب فقائد عسكر».

وحسبك حكما عدلا بين هؤلاء الشعراء ما سأورده عليك من قول ابن الأثير مع تصرف فيه.

قال: «هؤلاء الشعراء قد جمعت أشعارهم إلى عذوبة الحدثين. فصاحة الأقدمين، كما عقدت بين مثل سائر، وحكمة بالغة، أما أبو تمام فهو رب معان، وصيقل أذهان. قد شهد له بكل معنى مبتكر؛ لم يمش فيه على أثر؛ فمن حفظ شعره، وكشف عن غامضه؛ وراض فكره برائضه، أطاعته أعنة

الكلام، وأما أبو عبادة البحـترى فإنه أحسن فى سبك إللفظ على المعنى وأراد أن يشعر فغنى، ولقد حاز طرفى الرقة والجزالة على الإطلاق، أتى فى معانيه بأخلاط الغالية، ورقى فى ديباجة شـعره إلى الدرجة العالية، وأما أبو الطيب فإنه أراد أن يسلك طريقـة أبى تمام فقصرت عنه خطاه، ولم يعطه الـشعر من قيـاده ما أعطاه، لكنه حظى فى شعـره بالحكم والأمثال واسـتأثر بالإبداع فى وصف مواقف القتال» اهـ.

وسئل أبو الطيب نفسه عنه وعن صاحبيه فقال: «أنا وأبو تمام حكيمان» ولعمرى لقد أنصف فى حكمه وأعرب بقوله عن غزارة علمه.

نتيجة الموازنة

والخلاصة أن منزلة المتنبى فى الدرجة الأولى بين شعراء المعانى والأفكار والحكم والأمثـال، ووصف المعارك وآلات القتال، ويليـه فى هذه الدرجة أبو تمام، ومنزلة البحترى فى الدرجة الأولى بين شعراء الألفاظ والخيال، فقد برع صاحبيه ديباجة لفظ وبداعة خيال.

والحمد لله على التمام والكمال

انتهى

الفهرس

الموضوع	الصفحة
تمهيد	٧
وصف عصره سياسيا	٨
أثر الحال السياسية فى شعره	٩
الحياة الأدبية فى عصره	١١
أثر الحياة الأدبية فى شعره	١٢
حياته وبيئته وأثرهما فى شعره	١٤
محنته وسجنه	١٦
رقة دينه	١٧
نبوءة المتنبى	١٨
رحلاته	٢٠
رحلته الأولى	٢١
رحلته إلى حلب	٢٢
رحلته إلى الرملة فمصر	٢٥
عتب واعتذار	٢٨
رحلته من مصر إلى العراق	٢٩
رحلته الأخيرة	٣٠
المتنبى نعى نفسه	٣٠
رثاؤه	٣١
أخلاقه وصفاته	٣١
تلون المتنبى	٣٢
سرعة غضبه	٣٣

الموضوع	الصفحة
غلظة المتنبى وقسوته	٣٣
المتنبى يسأل ألحاف	٣٤
كبرياؤه	٣٧
شهرته بالبخل	٣٨
أدب أبى الطيب	٤٠
اختلاف الأدباء فى شعره	٤١
فنون شعره	٤٣
(١) شعره الوجدانى	٤٣
شعره الغزلى	٤٤
شعره الرثائى	٤٨
(٢) شعره الوصفى	٥١
دراسة تحليلية لوصفى المتنبى والبحترى بحيرتى طبرية والمتوكلية	٥٥
(٣) شعره الفلسفى	٥٨
فلسفته الخلقية	٦٠
رأيه فى المال	٦١
رأيه فى العلم	٦١
ألفاظه وأساليبه ومميزاته	٦٢
معانيه وأخيلته	٦٨
الشعر التمثيلى والقصصى	٦٨
المتنبى وحكم أرسطو	٦٩
سرق المتنبى من الشعراء	٧٢

الموضوع	الصفحة
طائفة من سرقاته	٧٣
الغزل ووصف الحرب	٧٦
ولعه بالتصغير	٧٧
آثاره ونثره	٧٩
ديوانه	٧٩
متناول كلامه	٨٠
نماذج من شعره فى المديح	٨٣
فى الهجاء	٨٥
فى الفخر	٨٧
فى الوصف	٨٩
فى الرثاء	٩١
فى التغزل	٩٣
فى الاعتذار والاستعطاف	٩٥
فى الاقتضاء والاستنجاز	٩٧
فى أغراض شتى	٩٩
الموازنة بين أبى الطيب والطائيين أبى تمام والبحترى	١٠٣